

www.qou.edu
جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

هوية القدس وانتماؤها التاريخي
بين التأصيل والتحريف

أ.د. يونس عمرو
رئيس جامعة القدس المفتوحة

أ.د. حسن السلوادي
عميد البحث العلمي والدراسات العليا
جامعة القدس المفتوحة



عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

فلسطين / رام الله - الماصيون

ص.ب. 1804

هاتف: 02-2984491 \ 02-2952508

فاكس: 02-2984492

بريد الكتروني: SPRGS@QOU.EDU

2012



إن قمة المأساة في قضية فلسطين هي مأساة القدس،
لأنها تشكل بأبنيتها وحجارتها وأزقتها وأماكنها المقدَّسة
وذكرياتها رموزاً تاريخية وحضارية لا يمكن أن تنسى.

إنها روح وجزء من دين وإنها حضارة وتاريخ،
وهذا هو حال الفلسطينيين والعرب والمسلمين مع القدس،
وهذا أيضاً حال القدس التي كتب عليها
أن تقاسي الآلام العظيمة الموازية لمجدها العظيم.

محمود العابدي



هوية القدس وانتماؤها التاريخي بين التأصيل والتحريف

فهرس المحتويات

مقدمة	1
المبحث الأول- أسماء المدينة ونشأتها	4
المبحث الثاني- القدس: الهُوية والانتماء التاريخي	17
المبحث الثالث- تاريخ القدس وحضارتها في الفكر الاستشراقي اليهودي المعاصر	28
الهوامش	49
المصادر والمراجع	58





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أقامت إسرائيل عام ١٩٩٥م احتفالات ضخمة بمناسبة ما أسمته: مرور ثلاثة آلاف عام على إعلان داود القدس عاصمة لبني إسرائيل، وقد اشتملت الاحتفالات على ندوات ومحاضرات ومسيرات نظمها اليمين المتطرف في شوارع البلدة القديمة، وبمحاذاة أسوارها. وكان الهدف من وراء تنظيمها تكريس الهيمنة الإسرائيلية على المدينة. وإبراز الخلفية الدينية والتاريخية التي تستند إليها الصهيونية في دعم أطروحاتها للاستئثار بملكيتها، والسيطرة عليها دون الآخرين، بزعم كونها العاصمة التاريخية للدولة العبرية، ورمز المعجزات الصهيونية، ومركز الديانة اليهودية منذ آلاف السنين.

وتعد الفترة التي حكم بها داود وسليمان –بالرغم من قصرها– محور الادعاءات الصهيونية حول أحقية اليهود بملكية المدينة، ففي هذه الفترة نجح داود في احتلالها وانتزاعها من أيدي أصحابها اليبوسيين، ويبدو أن الدافع لاحتلالها لم يكن دينياً منذ البداية، ولم يكن الأمر يتعلق بقداستها أو أهميتها الدينية، بل كان لاعتبارات استراتيجية تتعلق بموقعها الحصين في بقعة متوسطة بين الشمال والجنوب، وكونها نقطة التقاء ومحور تفرع لطرق المواصلات، مما جعلها في نظر داود منطقة مثالية تصلح أنً تكون عاصمة لأسباط بني إسرائيل.



وقد يظن لأول وهلة –وحسب ما يروج له في دوائر الفكر الصهيوني ومؤسساته الدينية والسياسية– أن قداسة المدينة تتعلق حصراً بقدوم داود واحتلاله لها، وهذا مناف للحقائق التاريخية، لأن القدس شيدت قبل مجيء داود بقرون كي تكون، منذ بداية نشأتها على أيدي اليبوسيين الكنعانيين الذين عبدوا **الله** العلي منها على ديانة نوح عليه السلام، رمزاً للقداسة والإيمان، وتغدو بعد ذلك موئلاً تتعلق به قلوب الناس جميعاً من المتدينين بالأديان كافة، حيث تواصلت قداستها بارتباطها بقوافل الأنبياء والرسل جميعاً، عليهم أفضل السلام، باعتبارها مدينة **الله** التي يجلّها المؤمنون كافة على شريعة الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم ربهم، فحملوا رسالتهم، وبلغوا أماناتهم على خير وجه.

ومن هنا لا يحق لأحد من الخلق الادعاء بملكيتها أو نسبتها لشخصية دينية أو تاريخية مهما بلغت مكانتها. وإن كان اليهود قد استغلوا وجود داود فيها وقتاً يسيراً من الزمن أسوأ استغلال، بل تحدوا مشاعر الناس في ادعاء نسبتها إليه، ذلك النبي الملك الذي ذكرها كغيره من الأنبياء جميعاً، وإن اختلف ذكره لها عن هؤلاء الأنبياء بمعان من الحسرة والأسى، صارخاً معاهداً أنه لن ينساها، فقد كان ذلك في وقت محنة قبل ثورة ابنه أبشالوم عليه وبعدها، حين اضطر إلى مغادرة المدينة هارباً من وجه ذلك الولد العاق. ولا نجانب الصواب إن قلنا: إنه في بكائه وذكره للمدينة كان يبكي ملكاً ضاع منه، هذا إلى جانب رغبته في الانتقام من هذا الولد المارق المتمرد ليس على الدين فحسب، بل على الوالد النبي الملك، وهذا مما لا يجوز، لا في شرع الأديان، ولا في شرع الإنسان.

وعلى الرغم من السياق الديني التعبدي الذي قيلت فيه هذه الابتهالات، فقد كان استغلالها في ترويج الادعاء بملكية المدينة استغلالاً واسع النطاق، مما أدى إلى التأثير –ولو بقدر يسير– على الرأي العام العالمي، وإيهامه بأن اليهود –فقط– دون سائر الطوائف هم أصحاب الحق التاريخي في المدينة، ومن يحاول التوقف والتفكير في هذه المسألة أو تلك، أو يحاول التفوه بكلمة أو رأي، فأول ما يواجه بالصراخ والضجيج على أنه عدو للسامية، هذه الكلمة التي استلَّها اليهود من قلب النصوص المقدسة، واستغلوها هي الأخرى استغلالاً عنصرياً. هذا الاصطلاح (السامية) كان ينبغي ألا يتعدى مفهوماً علمياً يسهّل على الدارسين البحث في تاريخ المجموعة البشرية التي سكنت ما يعرف ببلاد الساميين في التاريخ القديم، وبتقدّم البحوث الأثرية والحفرية، ودراسات علم السلالات البشرية، تبين أن مصطلح (السامية) لا يتمشى مطلقاً مع البعد السلالي لهذه الجماعات التي أطلق عليها، استناداً للنص الوارد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، وكل ما صح لدى الباحثين هو أن ينظر إلى هذا الاصطلاح على أن له دلالة على مجموعة اللهجات واللغات التي ذاعت على ألسنة تلك الشعوب التي عرفت بالساميين.

وإذا كان جل الشعب اليهودي قد استغل الأبعاد التاريخية والدينية أسوأ استغلال للتأثير على الرأي العام العالمي لصالح دعواته، وبالذات فيما يتعلق بمدينة القدس، فلنرجع إذن إلى هذا التاريخ ولنستمع إليه يقول كلمته في تاريخ هذه المدينة، بيت المقدس، مدينة **الله**.

المبحث الأول:

أسماء المدينة ونشأتها

إن استخدام المنهج العلمي في دراسة تاريخ المدن يستوجب على الباحث والمؤرخ أن يبحث عن شهادة ميلاد مدينته التي يكتب تاريخها، فإذا استطاع أن يقدم تلك الوثيقة، فإن بإمكانه أن يخوض لاحقاً في مجريات طفولتها وشبابها، وسائر عهودها الزاهرة وأحداثها الكبرى [١]، ومعالمها التاريخية الرئيسة متسلحاً بالمنهج العلمي الرصين الذي يسعفه في تقديم الحقائق، وجلاء الغامض منها دون بهرجة أو تزييف.

ومن هذا المنطلق نقول إن مدينة القدس هي عاصمة فلسطين منذ القدم بحكم موقعها في قلب هذه القطعة من بلاد الشام* وهي من أقدم مدن فلسطين، بل من أقدم مدن الأرض كافة، إذ يرجع تاريخها إلى حوالي ٢٦٠٠ ق. م، حيث أنشأها العرب اليبوسيون، وأطلقوا عليها أسمهم وربما أنشأوها على أنقاض بلدة كنعانية قديمة عرفت باسم (بيت نينورتا *Beth Ninurta*) [٢]، وقد يكون ذلك الموقع قريباً منها كما يتضح لاحقاً. والحديث عن نشأة القدس ومسمياتها يقتضي الحديث أولاً عن طبيعة البلاد التي تقوم عليها، وحقيقة أسمائها بقدر يسير في حدود تخدم هذا البحث.

تشكل فلسطين الجزء الجنوبي الغربي المنخفض من بلاد الشام، ويمكن تحديدها فقط من ناحيتي الشرق والغرب، إذ يحدها غرباً البحر الأبيض المتوسط، ويحدها شرقاً وادي الأردن. أما من الناحية الجنوبية فتنتهي حدودها باتصال منحرف بين الزاوية الجنوبية

الشرقية للبحر المتوسط وخليج العقبة. أما الحدود الشمالية فليس من السهل تحديدها لأن هذه البلاد، بالإضافة إلى لبنان، كانت –في الأصل– بلاداً واحدة، تعرف ببلاد كنعان، ثم قسمت فسمي لبنان بهذا الاسم من المادة الكنعانية (ل ب ن) التي تدل على البياض لما يعتلي جباله من الثلوج، في حين سميت فلسطين بأرض كنعان، من المادة السامية التي ما زالت في اللغة العربية (ك ن ع)، والتي تدل على الانخفاض. وقد اشتق الاسم الكنعاني من هذه المادة، كعلم على هذه البلاد، أي الأرض المنخفضة [٣].

وهذا الاسم (كنعان) هو نفسه الذي نسب إليه الكنعانيون سكان البلاد الأصليون. وهذا خلافاً لما علل له الباحثون من أن هذا الاسم لشخصية من سلالة نوح، لم يذكر في قائمة الأنساب الواردة في سفر التكوين في العهد القديم ضمن سلالة ابنه سام بل ضمن سلالة حام.

وفي معرض الرد على هذا الاعتقاد نقول إن الاسم الكنعاني ما كان اسماً لشخصية من سلالة أبناء نوح، ولم يكن ابناً لا لسام ولا لحام، بل هو اسم الأرض التي سكنها هؤلاء الكنعانيون يوم هاجروا مع إخوانهم من أرض الجزيرة ضمن الهجرات السامية فانتسبوا إليها، هذه الأرض التي عرفت بهذا الاسم لانخفاضها، بالنظر لأنحاء بلاد الشام الأخرى المرتفعة عنها، كما سبقت إشارتنا حول دلالة مادة هذا الاسم (كنع) التي توجد في اللغات السامية، فهي في الكنعانية والعبرية (כָּנַע كانع) بمعنى: تواضع وذلة وخضوع، ولا يخفى ما لهذه الدلالة من ارتباط بالانخفاض، أما في الآرامية فيه (ܟܢܥ كنع)

بالدلالة نفسها، ولكنها في اللغة العربية تدل على الانخفاض بصراحة ووضوح فيقال: أرض كانعة بمعنى أرض منخفضة (٤) .

ومع جلاء هذه الحقيقة فإن المرء لا يسعه إلا أن ينظر بعين الريبة والشك في حسن نوايا كاتب شجرة الأنساب السامية، كما وردت في الرواية التوراتية، في أنه استبعد نسبة الكنعانيين لسام، وجعلها لحام لحاجة في نفس يعقوب، هدفها نزع الأصالة عن هذا الشعب، وانتسابه لبني عصبته من الساميين الأوائل الذين هاجروا مع غيرهم من أرض الجزيرة العربية، بل هل فاته أن لغة الكنعانيين لغة سامية، وليست حامية، بل إن اللغة العبرية نفسها ترجع إلى هذه اللغة كلهجة انبثقت عنها؟! (٥) .

وتفرعت عن الكنعانيين بطون مختلفة كالفينيقيين والأموريين واليبوسيين، وكل منهم سكن بقعة خاصة به في ناحية من أنحاء البلاد، وكان حظ اليبوسيين أن سكنوا منطقة القدس، وبنوا مدينتهم فيها حوالي ٢٦٠٠ ق. م، وسموها باسمهم، فعرفت بالاسم يبوس، أو مدينة اليبوسيين التي تردد ذكرها كثيراً في المصادر القديمة، ولاسيما في العهد القديم ضمن مجموعة من المدن الكنعانية التي شكلت كل واحدة منها مملكة مستقلة عن الأخرى، يربطها نظام تحالف موحد على نمط الممالك الكنعانية في تلك الأيام.

وبالنظر إلى أهمية مدينة القدس وقداستها، فقد دار خلاف حول نشأتها، ومن أنشأها أول مرة، رغم ثبات الرأي القائل بأن بناتها الأوائل هم اليبوسيون، ولعل من أهم الآراء المخالفة، والذي نراه جديراً

بالمناقشة، ذلك الرأي القائل بأن أول من بناها وسكنها وسماها هو سام بن نوح، وإنها ترجع في نشأتها إلى سيدنا نوح عليه السلام، وهذا ما جاء على ألسنة أحبار اليهود، وهذا الادعاء لا يقوم عليه أي دليل علمي إلا التكهن، ذلك لأن المدينة ذُكرت لأول مرة في التوراة حين جاء إليها إبراهيم عليه السلام حوالي عام ١٩٠٠ ق. م. وذكرت باسمها اليبوسي (شالم) الذي أطلق عليها بالنظر لارتباطها بعبادة إله السلام الكنعاني (شالم)، **الذي ستتضح دلالاته اللغوية وخلفيته الدينية في عرضنا وتحليلنا لأسماء القدس**، بادئين باسمها الأول يبوس.

يبوس:

إن الاسم يبوس الذي لم تحدثنا المصادر عن سبب إطلاقه على هؤلاء اليبوسيين، هو من المادة الكنعانية (ب و س) بمعنى الخشونة والقسوة، وتوجد هذه المادة في عبرية العهد القديم، بمعنى الوطء بالاقدام والسفل: «فدست (וָאֲבוּסֵם) شعوباً بغضبي، وأسكرتهم بغيظي، وأجريت على الأرض عصيرهم»[٦]. وقد وردت في السريانية (ܒܘܣܐ يبوسا) بمعنى صغير، حسب القاموس السرياني للأب لويس كوستاز. وأما في اللغة العربية، فقد وردت مادة (ب و س)، ومنها باس بمعنى خشن [٧].

ويبدو أن الاسم يبوس من هذه المادة قد عرف به هؤلاء الناس لخشونتهم وقوة بأسهم؛ إذ تفيدنا المصادر أن مدينة القدس استطاعت أن تصمد في وجه الغزاة، ليس لحصانتها فحسب، بل لشجاعة أهلها

اليبوسيين وقوة بأسهم، وسيمر بنا ذلك فيما بعد، لقد ثبت أن مدينة القدس أورشليم هي نفسها مدينة يبوس، وذلك لما ورد في العهد القديم: : «فلم يرد الرجل أن يبيت، بل قام وذهب وجاء إلى مقابل يبوس هي أورشليم، ومعه حماران مشدودان وسريته معه» (٨) . ولنر الآن متى وكيف ومن أطلق هذا الاسم (أورشليم) على المدينة؟ .

أورشليم:

واضح مما سبق أن الاسم يبوس كعلم على هذه المدينة، كان اسماً عاماً لها ولأهلها اليبوسيين، وأن الاسم أورشليم قد أطلق عليها في فترة متقدمة من تاريخ نشأتها في عهدهم، بل إنهم هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم، وليس هناك أحد سواهم أطلقه عليها.

إن الاسم أورشليم –ولدى تحليله تحليلاً لغوياً– مركب من مقطعين (أور) و (شاليم)، وهذا الاسم المركب جاء متأخراً، فقد سبقته مرحلة متقدمة حين عرفت المدينة باسم شاليم فقط بمعنى السلام، ويبدو ذلك من خلال ذكرها في العهد القديم لأول مرة بهذا الاسم، حين جاء إليها إبراهيم عليه السلام (٩) حوال (١٩٠٠) قبل الميلاد.

والاسم شاليم مشتق من المادة السامية العامة (س ل م)، مع مراعاة وجود السين المهموسة في لغة، وبالشين في لغة أخرى، بل إن اسم المدينة ورد أحياناً بالسين وأحياناً بالشين. والمادة تدل في الأصل على معنى التمام والكمال، وتوجد بهذا المعنى في اللغة الكنعانية بسائر لهجاتها الفينيقية والحيثية والعبرية على حد سواء، فهي (שָׁלֵם شالم) بمعنى بقي سالماً مكتملاً لم يمس بسوء

أو نقصان. ولقد اشتقت من هذه المادة اشتقاقات مختلفة نراها حية في اللغة العبرية اليوم بدلالات مجردة مختلفة، نذكر منها (שלום شالوم) بمعنى سلامة وتمام واكتمال. ومنها (שלם شلم) هدية أو تقدمة للمودة والصحبة. ومنها (שלם شالام) بمعنى الدخول في حلف للسلام والصداقة. واشتقاقات من الأسماء الكثيرة جداً يطول بنا الحديث لو تتبعناها جميعاً، مما يدل على أصالة هذه المادة في اللغة الكنعانية.

وتوجد المادة في اللغة الآشورية (سلامو *Salamo*) بدلالتها الرئيسة نفسها في الكنعانية من معاني التمام والكمال والسلامة.

كما توجد في اللغة الآرامية بمختلف لهجاتها (شليم) بالدلالة نفسها أيضاً، السلامة والتمام، ومنها اشتقاقات كثيرة ما زالت موجودة في اللغة السريانية إلى يومنا هذا، ونذكر منها (شلموتا) بمعنى كمال واتحاد. (شلوماتا) بمعنى اتفاق. و (شلمتا)، (شلما) بمعنى سالم وصحيح. و (شلاما) بمعنى أمن وطمأنينة.

وكذلك في اللغة العربية السبئية (سلم) بمعنى سلام وسلم وأمن. ومن خلالها توجد في اللغة الحبشية ( ) (سالمو) بمعنى أمن وسلام [١٠].

أما عن هذه المادة في اللغة العربية، فإنها تعدُّ من أوسع المواد انتشاراً من حيث الاشتقاقات والدلالات، فالمادة (سلم) تدل على الحفظ والصون من كل فساد ونقص، وابتعاد عن الأذى للإنسان وغيره،

ومن هنا جاء قوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده» [١١] . ومن هذه المادة جاء اسم الإسلام بمعنى الإنقاذ والتسليم. والسلام بمعنى الأمن والاطمئنان [١٢] .

واضح مما سبق أن الاسم شاليم اسم سامي أصيل، يدل على الكمال والتمام والأمن في جميع اللغات السامية. أما عن وجوده علماً خاصاً عند الكنعانيين، سكان بلادنا فلسطين، فقد كان سابقاً على إطلاقه على المدينة، إذ كان اسماً للإله (شالم)، إله السلام والأمن عن الكنعانيين.

وعليه فقد تكون المدينة قد عرفت باسم هذا الإله أي مدينة (شالم)، هذا الاسم الذي ذكرت به في أسفار العهد القديم لمرات بلغت ستمائة وستاً وخمسين [١٣] . وذلك لقاء إله الرعب الكنعاني إله النار (مولك) الذي كانت تقدم له أضحيات من الأطفال، ويعبد قريباً من المدينة في الوادي المعروف بوادي جهنم.

أما عن المقطع (أور) المقطع الأول من اسم المدينة (أورشليم)، والذي اختلف الباحثون في أصله ومعناه. فيبدو أنه اقحم على اسم المدينة في وقت متأخر بعد أن عرفت بالاسم (شالم) متفرداً، ولعل ذكرها في نصوص العهد القديم بالاسم المركب فقط ست مرات، يصلح دليلاً على ما قلنا، بل يمكننا القول إن الاسم شالم متفرداً، كان غالباً على الاسم المركب.

إن الدلالة الأولى لمادة (أور) في الساميات عامة تدل على النور واللهب. فهي في اللغة الآشورية (اورو *Uru*) بمعنى ضوء ونور. وكذلك

في اللغة الكنعانية وما تفرع عنها من اللغات ومنها اللغة العبرية اليوم (אור أور) بمعنى نور وضياء، وقد وردت منها اشتقاقات كثيرة بالدلالة نفسها استعملت في العهد القديم للدلالة على النورين الشمس والقمر:

"וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים יְהִי מְאֹרֹת בִּרְקִיעַ הַשָּׁמַיִם..."

والمعنى بالعربية «وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء...»(١٤) بل استعملت في العهد القديم لتدل على مطلق النور والضياء וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים יְהִי אוֹר والمعنى بالعربية: «وقال الله ليكن نور....»(١٥).

وتوجد المادة أيضاً في اللغة الآرامية بالدلالة نفسها (أور)(١٦).

أما في اللغة العربية فالمادة موجودة (أور) بدلالة عامة عن النور واللهب، ومنها (الأوار) بضم الهمزة، بمعنى اللهب وحرّ النار والشمس والدخان والعطش وحر ريح الجنوب(١٧).

لعلنا بعد هذا البحث في أصل البنية الدلالية لكلمة (أور) في اللغات السامية، نستطيع القول بأنها تدل على النور والضياء بشكل عام، وعليه يكون في رأينا دخولها على الاسم (شالم) مناسباً ليصبح

(أورشليم) بمعنى نور السلام، وهذا المعنى هو الأقرب إلى مكانة هذه المدينة التي بدأت تاريخها بالنور القدسي كمدينة اختصت بشؤون العبادة والألوهية منذ نشأت على أيدي اليبوسيين وإلى أيامنا هذه، بل حتى يرث **الله** الأرض ومن عليها.

تبقى بعد ذلك ملاحظة نشير إليها على عجل، حول الياء قبل الميم الأخير في لفظها في العبرية (يروشالايم)، فنقول: إن وضع الياء قد ثبت أنه ليس من بنية الاسم الأولى، كما نطق به أهل المدينة وبناتها اليبوسيون أول مرة، وإنما أقحمت بفعل الخلل في النطق، أو لمقتضيات الترتيل الديني فيما يعرف بأصوات النبرات في قراءة اليهود، والدليل على ذلك أن الاسم كتب بدونها في أسفار العهد القديم غير مرة، كما ألمحنا سابقاً.

إن أقدم الخطوط والنقوش التي ذكرت مدينة القدس، توجد في المتحف الفرعوني في القاهرة، ضمن مجموعة لوحات من الآجر مكتوبة باللغة البابلية الآشورية -لغة العراق القديم-، ومعها شروح باللغة الكنعانية -لغة فلسطين القديمة- وتعرف هذه اللوحات بلوحات تل العمارنة نسبة إلى التل الذي يعرف بهذا الاسم، والذي كشف عن هذه اللوحات في خرائبه، وقد ذكرت القدس في هذه الوثائق باسم أورسالم.

وإذا كان الاسم أورسالم قد ذكر لأول مرة في لوحات تل العمارنة المسمارية في إشارة إلى أنها كانت تابعة لحكم مصر الفرعونية في فترة تقرب من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد،

فإن هذا التاريخ لا يمكن أن يعدَّ تاريخاً لبناء المدينة، ولا بد أن تكون قد بنيت في وقت سبق هذا التاريخ بما لا يقل عن الألف عام، لما نعرفه من ازدهار حضارة الكنعانيين جنباً إلى جنب مع حضارة الآشوريين والحيثيين والفنيقيين، وخاصة في أعمال البناء في الفترة ما بين ٢٦٠٠- ٢٠٠٠ قبل الميلاد (١٨) . وهذا التاريخ يصلح أن يكون تاريخاً لبناء المدينة أول مرة، مع عدم إغفال إمكانية التواجد الكنعاني في بلادنا، بل التواجد اليبوسي في موضع المدينة قبل هذا التاريخ بنمط معين من الحياة، التي ربما اقتصرت على الرعي والزراعة والسكنى في الكهوف.

ويرد اسم المدينة أيضاً بنمطه الآشوري (أوروسليمو) في نقوش الإمبراطور الآشوري سنحاريب الذي يرجع تاريخ حكمه إلى الفترة حول عام ٧٠٠ قبل الميلاد ونجد اسمها كذلك في نقوش يونانية ترجع إلى عهد الاسكندر الأكبر حوالي عام ٣٣٠ قبل الميلاد بلفظ (هيروسليما) أو (سوليما) . ثم من خلال الكتاب المقدس دخل هذا الاسم (أورشليم) إلى جميع لغات العالم، أما عن الاسم بيت المقدس أو القدس فيبدو أنه واكب الاسم أورشليم منذ زمن بعيد وإليك ذكره.

القدس:

قبل الحديث عن هذا الاسم كيف ومتى أطلق على هذه المدينة؟ نرى أن من المفيد التطرق إلى أصله ودلالته في اللغات السامية على وجه العموم. فالاسم مشتق من المادة السامية العامة (ق د س)، ودلالتها الحسية الأولى التنزيه والتطهير، ولقد وردت اشتقاقات عربية من هذه

المادة تدل على معنى الضخامة والعظمة إلى جانب التطهير [١٩]. هذا عن وجود المادة في اللغة العربية. وقد وردت كذلك في اللغة الكنعانية بسائر لهجاتها، فهي في الفينيقية (قدش) بالشين بمعنى مقدس، وكذلك في اللغة العبرية تماماً كالفينيقية، وكذلك توجد في اللغة الآشورية (قداسو *Kadasu*) بمعنى تطهر، وتوجد في اللغة الآرامية (قداشا) وتوجد في السريانية (قدش). بمعنى قدس، ومن خلال اللغة العربية توجد المادة في اللغة الحبشية.

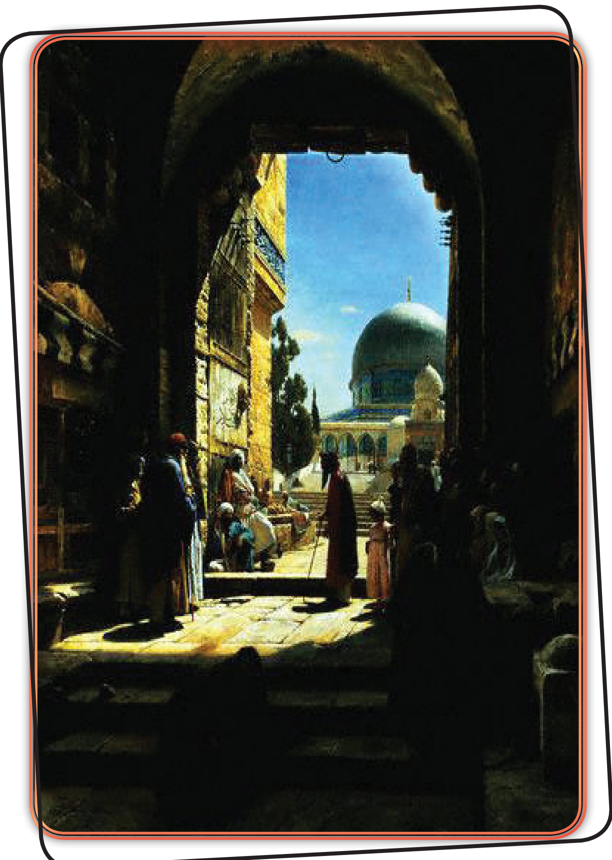
ويبدو أن هذا الاسم (القدس)، قد عرفت به المدينة في فترة متقدمة من تاريخها كصفة لمكانتها إلى جانب اسميها السابقين، يبوس وأورشليم، وذلك لما هو معروف من أن المدينة كانت مكاناً لعبادة آلهة قديمة للكنعانيين، مثل إله السلام شالم، وإله النار مولك، وكانوا يقدسونها على أنها مكان للتطهر من الذنوب، فالمؤرخ اليوناني هيردوتس الذي عاش في الفترة ما بين عامي ٤٨٤ و ٤٢٥ قبل الميلاد، ذكر المدينة باسم (قديتس) ولم يذكرها باسم أورشليم، هذا الاسم الذي كان ربما يكون هيردوتس قد تأثر فيه بنطقه في اللغة الآرامية (قديشتا)، وهذا ما أكده المستشرق اليهودي الفرنسي سالومون مونك في كتابه فلسطين [٢٠]. على أن ذكر المدينة بهذا الاسم قد ورد في أسفار العهد القديم في مواضع مختلفة، فقد ذكرت بمدينة القدس مرتين الأولى وردت مقترنة باسمها أورشليم وذلك في سفر نحميا: (١: ١١): «وسكن رؤساء الشعب في أورشليم وألقى سائر الشعب قرعا ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى في أورشليم مدينة القدس والتسعة الأقسام في المدن»، والمرة الثانية في سفر

أشعيا (٢: ٤٨) «فإنهم يسمون من مدينة القدس، ويسندون على إله إسرائيل رب الجنود اسمه».

ولعل هذه النصوص تدل بشكل قاطع بأن الاسم (القدس)، قد واكب مواكبة مستمرة الاسم أورشليم على مر العصور والأيام، وأنه لم يأت عرضاً، أو بفعل كاتب هذه النصوص وحسن قريحته الأدبية، بل بفعل تاريخ طويل من الإيمان القدسي الذي اكتنف ذكر هذه المدينة منذ نشأتها في التاريخ، تلك القدسية التي أدت إلى عدم التوقف عند تسميتها بمدينة القدس، بل تجاوزت إلى إسنادها مدينة **الله** جل شانه، وما دامت ارتفعت إلى هذا الحد، فلا يجوز الرجوع بها وبقدسيتها إلى الوراء، فتسند لأناس من خلق **الله**، كأن يقال بأنها مدينة داود.

لقد ثبت مما سبق مواكبة الصفة القدس للموصوف أورشليم، تلك المواكبة التي استمرت في تاريخ طويل، إلى أن تغلبت الصفة على الموصوف، فتوقف ذلك الموصوف، وتقدمت الصفة لتصبح علماً مطلقاً على المدينة، فصارت مدينة القدس ومدينة بيت المقدس هي المعروفة على ألسنة المتدينين بالأديان جميعا، ولقد توطد هذا الاسم القدس وبيت المقدس في الاستعمال على ألسنة العرب مسيحيين ومسلمين على حد سواء، والمطلع في سائر كتب التراث لا يقف على ذكر لهذه المدينة إلا بهذا الاسم الذي يعبر في مدلوله اللغوي، كما عبر غيره من الأسماء التي أطلقها عليها بناتها الأوائل من العرب الكنعانيين واليبوسيين عن واقع المدينة وطبيعتها التي اقترنت على الدوام بالطهر والقداسة والتنزه عن العيوب والنقائص، وبلد هذه خصائصه لا بدَّ أن يكون متألقاً جميلاً تهوي إليه أفئدة المؤمنين، وتطاله في

الوقت نفسه أيدي الطامعين العابثين الذي دأبوا –وما زالوا– على سلب القدس سرَّ جمالها، وتشويه سفر خلودها، وطمس هوية أصحابها، بل إنكارها ومحاولة السطو على منجزاتها الحضارية عبر عصور التاريخ الذي تأبى القدس روايته لأنها هي الراوية له، والشاهدة على أحداثه من خلال شخصيتها العربية الفلسطينية وهويتها الحضارية المتميزة، وانتمائها التاريخي الأصيل الذي **سنعرض لمحات موجزة من صفحاته فيما يأتي**:



المبحث الثاني:
القدس: الهُويَّة والانتماءُ التاريخي

ليس في العالم قاطبة مدينة تثير الخواطر، وتشحذ خيال المؤمنين، وتعبر بها من الحلم إلى الواقع وأخرى من الواقع إلى الحلم في جدلية مستمرة ومفعمة بالرموز والإشارات والحضور التاريخي، والشخصية المتميزة والمتمردة في آن مثل القدس الشريف، بل ندر أن نجد في العالم كله مدينة تحاكيها «في ما اجتمع فيها من آثار مقدسة منذ أربعة آلاف سنة إلى اليوم، ولا في ما تثيره في أعماق النفس من مشاعر الإجلال والتقديس، ولا في ما تبعثه في القلب من أنس وبهجة»(٢١).

لقد أجمل ابن القدس الشريف العلامة الجغرافي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري المقدسي المولود فيها مزايا هذه المدينة في كتابه: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) في القرن الرابع الهجري أمام جمع من العلماء في مدينة البصرة، فقال: «قلت: أما قولي أجمل مدينة، فلأنها جمعت الدنيا والآخرة. فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها. وإن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها. ومنها المحشر وإليها المنشر. وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي، ويوم القيامة يزفان إليها، فتحوي الفضل كله. وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها. فأي أرض أوسع منها؟ فاستحسنوا ذلك وأقروا به» (٢٢).

وهذه العبارات على إيجازها تختصر تاريخاً ممتداً طوله أكثر من أربعة الآف سنة، شهدت المدينة خلالها أمماً وحضارات، وتعاقبت عليها أفواج من الغزاة والطامعين، ابتداء من الغزوة الإسرائيلية القديمة



وانتهاء «بالغزوة الصهيونية المعاصرة التي حاولت بشتى الأساليب والطرق أن تختزل آلاف السنوات وتقفز فوق القرون، وتطوي سجل المدينة الحضاري صفحة تلو الأخرى لتصل ماضياً مشوهاً مبتوراً بحاضر قائم على القهر والاغتصاب، وهدفها الأساسي من وراء ذلك تغييب هوية الإنسان الفلسطيني التي تشكلت عبر مراحل التاريخ المتعددة. وإسقاط المراحل التاريخية التي تصل ماضيه بحاضره. وطمس ذاكرته الجماعية التي تربطه بوطنه وتشده إليه.

إن تاريخ الحركة الصهيونية المعاصرة يبدأ بالتوراة وينتهي بالتوراة، في حلقة تراثية مغلقة جمَّدت تاريخ فلسطين واختزلت مراحله عبر آلاف السنين في الإطار الزمني للعهد القديم فحسب، وهذا يقود أتباعها والمؤمنين بها إلى الوقوع في شرك المغالاة في الوهم، والنظرة الأحادية المتعصبة التي تجانب المنطق، وتتجنى على الحقيقة التاريخية، وتسقطها من حسابها. مما أدى إلى إغلاق باب الاجتهاد والبحث في أمور ربما كان الكشف عنها سيقلب النظريات والأطروحات التي حاول بعض المستشرقين و اللاهوتيين في الغرب بناءها، وأجهدوا أنفسهم في إثبات صدقيَّتها.

ومما يثير العجب أن التوراة التي يجعلها الإسرائيليون سندهم الوحيد في الادعاء بملكية القدس تشير إشارة واضحة إلى أن العبرانيين لم تكن لهم علاقة بنشوء مدينة القدس، وكانوا يرون أنفسهم غرباء عنها، فهي تحدثنا عن رجل إسرائيلي وامرأته وغلامه كانوا مارين ذات يوم فأدركهم الليل، وبينما هم بالقرب من يبوس (القدس) قال الغلام لسيده: «تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة لا أحد فيها من بني إسرائيل»(٢٣).

وفضلاً عن ذلك فقد أصبح من الحقائق التاريخية المجمع عليها بين المؤرخين، وخاصة بعد الاكتشافات الأثرية، المهمة المتمثلة في نصوص تل العمارنة في مصر الفرعونية، والنقوش البابلية والآشورية، إضافة إلى النصوص العبرية القديمة أن القدس تنتمي إلى العرب منذ فجر التاريخ، وأن الفلسطينيين العرب هم من أقدم السلالات التي سكنت كنعان لا قبل الغزو الإسرائيلي، بل إبَّان وجودهم الطارئ هناك، وعلى حد تعبير المؤرخ البريطاني هـ. ج. ويلز « فإن حق العرب في فلسطين هو حق احتفظ به بطريق صدوق ودؤوب، خرج الإنسان من غياهب المجهول، وربما كان أبسط وأوضح حق من حقوق الملكية في العالم [(٢٤)] .

وزيادة على ما سبق، فإننا نجد من النصوص البابلية والأشورية ما يشير إلى استخدام لفظ عربي كمدلول جغرافي لإقليم معين في هذا الصقع الذي عرف فيما بعد باسم فلسطين وبيت المقدس جزء منه، فقد ورد في نقوش الإمبراطور الآشوري (شلما نصر الثالث) ٨٥٩–٨٢٥ ق. م أن ملكاً عربياً اسمه «جندبو» وبالعربية جندب تحالف ضده مع الآراميين، وأنه أرسل إمدادات كثيرة محملة على ألف جمل في أثناء موقعة قرقار (٨٥٤ ق. م) . وفي نقش آخر لسرجون الثاني يشير إلى أنه نقل بعض القبائل مثل ثمود والعباد (أبادايدي بالآشورية) إلى السامرة، وأسكنهم فيها بعد أن هزم ودمر إسرائيل سنة (٧٢٢ ق. م) [(٢٥)] .

وهناك –بالإضافة إلى ما سبق– ملاحظة جديرة بالاهتمام ربما يجهلها كثيرون، وهي أن العرب متمثلين بالأنباط طردوا الآدوميين

من شرق فلسطين وجنوبها، وحكموها حكماً مباشراً قبل فتح المسلمين لها بثمانية قرون (٣٠٠ ق. م – ١٠٦م)، كما حكمتها الزباء ملكة تدمر العربية فترة وجيزة امتدت من ٢٧٠م – ٢٧٣م(٢٦).

وهكذا ظل الطابع العربي في فلسطين متألقاً فعالاً عبر القرون رغم العديد من الغزاة والطامعين في أرض فلسطين، في حين اضمحل الوجود اليهودي في البلاد حتى لم يعد لهم شأن يذكر، وقد شبه المؤرخ الانجليزي (هـ. ج. ويلز) أوضاع اليهود بالنسبة لسكان فلسطين وغيرهم من الأقوام التي سكنت فيها تشبيهاً طريفاً حيث قال: «كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفنيقية، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم» (٢٧).

ومن الشواهد الدالة على ذلك الإحصائية التي قام بها أوشابيوس القيسراني سنة ٣٣٧م، حيث جمع قائمة القرى الفلسطينية في العصر البيزنطي، وأحصى قرابة ٣٣٧ قرية منها ٢٨٧ قرية من السكان الفلسطينيين الأصليين الذين وصفهم البروفسور فريزر بقوله: «إنهم الأخلاف الأصلاء للقبائل الكنعانية التي كانت تعيش في فلسطين قبل الغزو الاسرائيلي، وظلت أقدامهم ثابتة في التربة الفلسطينية بعد ذلك التاريخ (٢٨).

لقد أدرك الكنعانيون منذ الوهلة الأولى التي وطنوا فيها في هذه البلاد قبل الألف الرابع قبل الميلاد أهمية الحياة فيها، وأنهم

لا بدَّ أن يعتمدوا لأنفسهم نمطاً من الحياة غير الذي اعتادوه بوادي الجزيرة العربية، فأقبلوا يشتغلون إلى جانب الرعي بالزراعة، فزرعوا الحبوب وأشجار الزيتون والكروم، ونتائج الحفريات قد أوقفتنا على أدلة مختلفة تدعم هذا، فما زلنا نرى في كل مكان من هذه البلاد آثار معاصر الزيتون والكروم منحوتة كلها في الصخر، فضلاً عن آثار بيادر الحبوب وصوامع حفظها.

واتجه الكنعانيون بعد ذلك للعمل في التجارة، فأبدعوا فيها وقاموا بمستلزماتها، وجابوا آفاق الدنيا، فكانوا أول المكتشفين للمحيط الأطلسي، وأول من اكتشف سواحل إفريقيا وداروا حولها، وجعلوا البحر المتوسط مسرحاً لحضارتهم وتجارتهم منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد أي قبل مجيء الرومان بأكثر من ألف وخمسمائة عام، وكانت لهم علاقات طيبة وطيدة مع الشعوب المجاورة، وقد ساعدهم على ذلك موقع بلادهم المتوسط بين الشرق والغرب، وتمتعها بمكانة مركزية جعلها تتحكم بالطرق التجارية في العالم القديم.

وأنشأ الكنعانيون العرب في بلادنا حضارة ضخمة أطنب في وصفها مؤرخو البلاد المقدسة، وكان لها تأثير في مختلف الحضارات التي أعقبتها، ومع ذلك وصفتهم التوراة بأنهم جنس ملعون، وتعرضوا لأشكال شتى من الحقد والعدوان، لا لأنهم كانوا وثنيين، بل لأنهم لم يحتفلوا بالغزاة العبرانيين، ولم يلاقوهم بالخبز والماء عند خروجهم من مصر حسب ما ورد في أماكن متفرقة من التوراة (٢٩)، ويعلق (دين ستنالي) على ذلك قائلاً: «وما جنس الكنعانيين الملعون –حسب



ما جاء في أسفار أشعيا والقضاة والتثنية– إلا ذلك الجنس عينه الذي كنا نتطلع إليه عبر القرون من بلاد اليونان باعتباره أبا الكتابة والتجارة والحضارة [٣٠] .

وقد أكد الأطلس التاريخي للإنجيل هذه الحقيقة حيث جاء فيه ما نصه: «كان الكنعانيون خلال ألفي سنة جسراً بين مدن الحضارة على الفرات والنيل، ومنهم، أخذ اليونان الحروف ونقلوها إلى العالم، وتأثر الإسرائيليون بحضارة الكنعانيين، فأخذوا حروفهم التي كتب بها العهد القديم، وتأثروا بأسلوبهم الشعري وبموسيقاهم ودينهم»[٣١] .

ونزل في المدينة المقدسة بعد ذلك فرع من فروع الكنعانيين العرب هم اليبوسيون، وأطلقوا عليها اسم يبوس نسبة إليهم، وقد عمّر اليبوسيون المدينة، وبنو هيكلهم في أعلى منطقة فيها حوالي ٢٦٠٠ ق. م، وهذا كله يدل على أن المدينة كانت تحتل في عهدهم، وفي عهد أسلافهم الكنعانيين مكانة بارزة في التاريخ قبل الوجود اليهودي بقرون.

لقد بلغ اليبوسيون درجة عالية من الاستقرار والمنعة في مدينتهم، واستطاعوا بما عرف عنهم من الشدة والبأس أن يحافظوا عليها أمام الغزاة والطامعين، وصمدوا في وجه الهجمات الإسرائيلية التي شُنت على مملكتهم ولم يغادروها حتى بعد أن تمكن منها بنو إسرائيل، وقد سجلت أسفار التوراة أنهم شكلوا منذ بداية التسلل اليهودي إلى فلسطين تهديداً مستمراً وخطراً على التواجد اليهودي، فقد ورد في الإصحاح ١٥ فقرة ٦٣ من سفر يوشع «وأما اليبوسيون



الساكنون في أورشليم القدس، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم» (٣٢) .

وعلى الرغم من أن سفر القضاة، الذي يَعْتَوِرُ رواياته قدر غير ضئيل من التناقض والتشويش، يشير في الإصحاح الأول منه إلى استيلاء بنى إسرائيل على المدينة بعدما ضربوها بحد السيف، وأشعلوا فيها النيران، فإننا نقف على نصوص لاحقة من السفر نفسه، وبخاصة في الإصحاح التاسع عشر منه على أن المدينة كانت ما تزال تحت سيطرة أهلها اليبوسيين، بل لا يوجد فيها إسرائيلي واحد، ومما ورد في هذا الإصحاح: «فلم يرد الرجل أن يبيت، بل قام وذهب وجاء إلى مقابل يبوس هي أورشليم ومعه حماران مشدودان وسريته معه، وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا نعبر إلى جبعة» (٣٣) .

من هذه النصوص يتضح بشكل قاطع ما أشرنا إليه من أن مدينة القدس كانت حصينة بأهلها اليبوسيين الأقوياء وبمنعة موقعها، حيث بقيت في صراع مع بنى إسرائيل في مدى خمسمائة عام من الزمن تقريباً، منذ خرجوا من مصر في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وإلى عهد داود الذي عاش في مطلع الألف الأول قبل الميلاد.

وقد دلت الوثائق التي اكتشفت حول تلك الفترة، وكذلك المصادر القديمة التي تناولت أحداثها، ومن بينها العهد القديم أن اليهود لم

يستقروا سياسياً طوال فترة احتلالهم لفلسطين، كما أنهم لم يشكلوا في أية فترة من فترات التاريخ الكثرة الغالبة للسكان، بل كانوا خلال الفترات المحدودة التي تواجدوا فيها أقلية بين كثير من الشعوب العربية كاليبوسيين والمؤابيين والآدوميين والعمونيين والكنعانيين(٣٤) الذين عُرفوا بما أقاموه من حضارة وما أضافوه إليها من تجانس سكاني مازالت آثاره واضحة حتى الآن.

وقد ظلت القدس في يد أصحابها اليبوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داود، وكان داود قبل ذلك مقيماً في الخليل. وحين عزم على مهاجمة المدينة واحتلالها لدواع استراتيجية وعسكرية، وليس لأسباب دينية –كما أشرنا سابقاً– وجدها محصنة بالأسوار والقلاع، ولقي من أصحابها مقاومة عنيفة، وطال حصاره لها حتى علم بنفق كان اليبوسيون قد حفروه ليصلوا منه إلى عين ماء في وادي قدرون أسفل يبوس، فتسلل داود من هذا النفق مع رجاله، واستطاع جيشه أن يصل إلى داخل المدينة، وخاض حماتها اليبوسيون مع الجيش الغازي معارك شرسة في الشوارع وحول الأسوار حتى أعلنت المدينة استسلامها، ونصب داود ملكاً عليها بعد قدومه من مدينة الخليل(٣٥).

ولم تفتر مقاومة الفلسطينيين بعد احتلال عاصمتهم، بل واصلوا المقاومة، وقد وصف العهد القديم كثيراً من المعارك التي دارت بين الطرفين، ففي الإصحاح الخامس من سفر صموئيل الثاني أن الفلسطينيين حين سمعوا أن اليهود نصبوا داود ملكاً عليهم، صعدوا إليه ليقاتلوه: «ولما سمع داود نزل إلى الحصن، وجاء الفلسطينيون

وانتشروا في وادي الرفائيين» (١٧: ٥)، وجرت معركة ضارية بينهم، وحسب عادة اليهود، فقد حارب الرب عن بني إسرائيل «واقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه»، وفي موضع آخر من الإصحاح نفسه يقول «وانحدر داود وعبيده معه، وحاربوا الفلسطينيين فأعيا داود، وهجم أحد الفلسطينيين على داود ليقتله، ووزن رمحه مائة شاقل نحاس فأنجده (أبيشاي) من جيش داود فضرب الفلسطيني وقتله»[٣٦].

وحين أصدر كورش ملك الفرس بتأثير زوجه اليهودية (إستير) مرسوماً بإعادة يهود السبي البابلي عام ٥٣٨ قبل الميلاد، وسمح لهم ببناء الهيكل ثارت ثائرة الفلسطينيين شعب الأرض فأعلنوا الثورة، وأنزلوا الرعب في قلوب اليهود، مما حدا بالملك الفارسي (داريوس) الذي جاء بعد كورش بتهديدهم، وأصدر أوامره: «أن كل إنسان يغير هذا الكلام تسحب خشبة من بيته، ويعلق مصلوباً عليها، ويجعل بيته مزبلة من أجل هذا»، وبالرغم من هذه التهديدات فقد قاوم الفلسطينيون ومن جاورهم من شعوب جنوب الشام عودة اليهود إلى فلسطين، ويعترف الإصحاح الثالث من سفر عزرا: «بأن اليهود كان عليهم رعب من شعوب الأراضي» [٣٧].

وكذلك قاوم الفلسطينيون محاولة اليهود المدعومين من الفرس في عهد زريابل لإعادة بناء الهيكل، وحاولوا إبطالها وسجلت التوراة معارضتهم حيث جاء في سفر عزرا: «وكان شعب الأرض يرخي أيدي شعب يهودا ويذعرونهم عن البناء، واستأجروا ضدهم مثيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورش ملك فارس وحتى ملك داريوس» [٣٨].

وسلك الفلسطينيون بالإضافة إلى مقاومتهم المسلحة سبلاً دبلوماسية، وذلك من خلال الاتصال بالقوى الفاعلة في المنطقة في تلك الحقبة، وإقناعها بالعدول عن مساندة اليهود ودعمهم، فقد وجهوا على سبيل المثال رسالة بالآرامية إلى ملك الفرس يحذرونه من غدر اليهود وخيانتهم وقد جاء في الرسالة: «ليكن معلوماً لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجاً ولا خفارة وأخيرا تضر الملوك» (٣٩) .

وهكذا لم يترك الفلسطينيون أو (شعب الأرض)، حسب تعبير العهد القديم، وسيلة إلا سلكوها في مقاومتهم للغزو الإسرائيلي، وعلى الرغم من محاولات الطرد والتهجير التي تعرضوا لها على أيدي الغزاة العبرانيين، فقد ظلوا متشبثين بوطنهم، متمسكين به، وظل وجودهم فيه متواصلاً لفترة تزيد على خمسة آلاف عام قبل الغزو وبعده، بما في ذلك فترة الحكم الإسلامي، لأن الفتح العربي الإسلامي –كما يرى غير واحد من المؤرخين (٤٠)– لم يكن سوى حلقة من حلقات هذا الوجود العربي الراسخ والمتصل في المدينة المقدسة منذ فجر التاريخ(٤١) . تقول الباحثة فرانسيس نيوتن (*Frances Newton*): «إن العرب لا اليهود هم الذين كان لهم باستمرار ارتباط تاريخي دائم غير منقطع مع فلسطين» (٤٢) . وكان سكان مدينتهم المقدسة (القدس) في أثناء تلك القرون عرباً: لساناً وحضارة وقلباً ومشاعر، لم يغادروها طوال التاريخ، بل ظلوا دائماً العنصر الأساس بين سكانها الأصليين، حيث كانوا يستعيدون ملكيتها بعد طرد الغزاة منها، أو بعد ذوبان أولئك الغزاة الطارئين في مجتمعها، ونجد في التوراة إقراراً بهذه الحقيقة،

حيث يخاطب حزقيال شعبه قائلاً: «أمكم (المقصود عرقكم) حثية وأبوكم أموري» (حزقيال: ٣٨٦/ ٤٥) ومع وضوح هذه الحقيقة التي أكدتها الكشوفات الأثرية المعاصرة، فإن الرواية الحقيقية لتاريخ المدينة المقدسة وحضارتها، تعرضت- وما زالت- للتحريف والتشويه على أيدي المستشرقين اليهود المعاصرين الذين ساروا على نهج أسلافهم، وبذلوا جهوداً بحثية مكثفة ضمن مخطط مرسوم، هدفه التهوين من مكانة المدينة، والتدليل على المنزلة الهامشية التي تحتلها في التصورات الإسلامية والمسيحية، وفيما يأتي عرض موجز لهذه الجهود مشفوع غالباً بردود ومناقشات، نرجو أن تكون مجدية ومحققة للغرض الذي سيقت من أجله، وهو إبراز المعطيات التاريخية والحضارية الثابتة التي أغفلها بعض المستشرقين، وتعمدوا طمسها وتحريف دلالاتها ومقاصدها بما يتناسب والأهداف التي سعوا إلى تحقيقها.



المبحث الثالث: تاريخ القدس وحضارتها في الفكر الاستشراقي اليهودي المعاصر

أثار المستشرقون اليهود مجموعة من القضايا التي تتصل بتاريخ بيت المقدس، وحضارتها منذ بداية فتحها على يد المسلمين عام ٦٣٧ م، وحتى سقوطها في يد الإنجليز بعد هزيمتهم للأتراك العثمانيين في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧ م، وكان الهدف من إثارة هذه القضايا التدليل على أن المدينة لم تكن لها أية مكانة مميزة في الإسلام، ولم يكن لها أهمية تذكر من الناحيتين الإستراتيجية والإدارية.

ولعل من أبرز القضايا التي أثارها أولئك المستشرقون قضية فتح المدينة وتسليمها للفاروق عمر بن الخطاب، فقد زين هذا الفتح –على حد قول غويتاين– بهالة من القصص والأساطير الخيالية التي ظهرت بشكل متزايد في الأجيال المتأخرة، والتي يظهر فيها أن أكثر القادة شهرة هم الذين قاموا وحدهم بالمراحل المختلفة من عملية الفتح، مع أن الذين قاموا بحصار المدينة وفتحها قادة مغمورون، ووردت أسماؤهم في المصادر القليلة الموثوقة التي تحدثت عن سير عملية الفتح، يقول غويتاين: «لقد نصب حصار سهل على المدينة بإمرة بدو ليس ذوي أهمية» [٤٣] ويقول: «إن أسماء أولئك قد وردت في تاريخ الطبري» [٤٤] وهو يشير بذلك إلى علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي، وهما من كبار قادة المسلمين الذين وجههما عمرو بن العاص إلى إيلياء لإشغال أهلها، والحيلولة دون مساعدتهم لجيش الروم الذي كان مجتمعاً في أجنادين.

أما عن سهولة حصار المدينة وفتحها، فيتناقض مع ما ورد في العديد من المصادر التي تحدثت عن الفتح، ومنها أن عمرو بن العاص وجه رسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ويطلب منه المجيء إلى بيت المقدس، ويقول فيها: «إني أكابد حرباً كئوداً صدوماً وبلاداً ادخرت لك، فرأيك» (٤٥)، وذكرت المصادر أن الخليفة استجاب لهذا المطلب، وبعث قوات إضافية إلى جبهة الشام، ووجه قائده أبا عبيدة وهو من معسكره بالجابية لفتح بيت المقدس.

ويستدل غويتاين من تحركات الجيوش الإسلامية في معارك الشام أن القدس كانت بعيدة عن اهتمامهم، ولم تتوجه أنظارهم إليها منذ البداية، ويعلل لذلك بقوله: «لم يتجه الفاتحون العرب في البداية نحو القدس، لأن عادة غزو أبناء الصحراء أن يقوم البدوي باحتلال الأماكن التي نهج على القيام بزيارتها لأغراضه التجارية أو لمرافقة القوافل، ومدينة غزة وهي أقصى نقطة في طريق التجارة عند أهل الحجاز قبل الإسلام، كانت الهدف الرئيس للفتح، ولذلك فقد تحول جنوب فلسطين مع الفتح العربي عام ٦٣٤ م إلى ساحة معركة، أما عن القدس فكانت بعيدة عن اهتمام المسلمين» (٤٦) .

والواقع إن فتح غزة مثلها مثل بيسان وقيسارية قد جرى وفق متطلبات المعركة وظروفها، وبناء على تحركات الجيوش المعادية وتجمعاتها، وما ورد في تاريخ الطبري يدل دلالة قاطعة على أن تحركات الجيوش الإسلامية كان الهدف الأساس من ورائها بيت المقدس، وأن معركة أجنادين التي أعقبت هذه التحركات هي التي مهدت الطريق لفتح بيت المقدس في ربيع الآخر ١٦هـ/ مايو ٦٣٧ م (٤٧) .



وتجمع المصادر عن الفتح الإسلامي للمدينة أن أبا عبيدة وجه بناء على تعليمات من الخليفة عمر بين الخطاب سبعة من كبار قادته لحصارها بعدما أصبحت جيباً معزولاً، وكان على رأسهم خالد بن الوليد، ومع كل واحد منهم خمسة آلاف فارس، وبعد أن فرغ أبو عبيدة من تطهير شمال الشام (حلب وأنطاكية)، سار إلى بيت المقدس، وتولى الحصار بنفسه لفترة تقارب أربعة أشهر، كتب بعدها أهل المدينة يطلبون الصلح على مثل ما صالحت عليه مدن الشام، غير أنهم اشترطوا أن يتولى عقد الصلح معهم الخليفة عمر بن الخطاب [٤٨].

وقد وصف الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) لهفة المسلمين لدخول المدينة، وتنافس قادتهم للحصول على شرف فتحها فقال: «بلغني أن المسلمين باتوا تلك الليلة السابقة للاشتباك مع جيش الروم الموجود في بيت المقدس كأنهم ينتظرون قادماً يقدم عليهم من شدة فرحهم لقتال أهل بيت المقدس، وكل أمير يريد أن تفتح على يديه، فيتمتع بالصلاة فيه، والنظر إلى آثار الأنبياء» [٤٩].

ويشكك المستشرقون من ناحية ثانية بالرواية التي تؤكد قدوم عمر بن الخطاب لاستلام بيت المقدس بطلب من صفرونيوس، ويوردون روايات عديدة متناقضة حول الشخص الذي تسلم المدينة وعقد الصلح مع أهلها، وقد صنف غويتاين تلك الروايات أربعة أصناف، أجدرها بالثقة في رأيه رواية أثبتها كارل بروكلمان في كتابه: تاريخ الشعوب الإسلامية، تنص على أن المدينة سلمت إلى قائد مغمور لم يبرز بشكل خاص في القتال هو خالد بن ثابت الفهمي، وكان شرط الاستسلام واضحاً، وهو أن ترضخ البلاد لسلطة المحتل، أما المدينة نفسها فلن

يصيبها ضرر مادام أهلها يدفعون الضريبة التي فرضت عليهم (٥٠)، ويضيف غويتاين: «أننا لا نجد في هذه الرواية أي ذكر لنص عهد لأنه لم يكن موجوداً حسب رأيه» (٥١).

وهناك رواية أخرى، تذكر أن عمر بن الخطاب بعث وهو في الجابية رجلاً من جديلة إلى بيت المقدس، ولم يدخلها فافتتحها صلحاً، ثم أتاها عمر ومعه كعب، وتؤكد رواية ثالثة أن عمرو بن العاص هو الذي فتح المدينة وتسلمها صلحاً من أهلها، وهذه الرواية –في رأي (هربرت بوسه)– «من أشد الروايات انتقاصاً من مكانة المدينة، لأن عَمْراً لم يدخل الإسلام إلّا في العام الثامن للهجرة، كما أنه لم يكن من أكابر الصحابة، وذلك لا يتناسب والمكانة التي تحتلها المدينة التي أخذت تسمو شيئاً فشيئا، وتتطلب أن يكون فاتحها شخصية إسلامية مرموقة، لذا استغلت الروايات المحلية القصص، أو ربطتها بواقعة تاريخية هي مجيء عمر بن الخطاب إلى الجابية، دون أن يكون لذلك علاقة بفتح بيت المقدس» (٥٢).

ومع التسليم بوجود هذا الاختلاف في الروايات التي تحدثت عن الفتح الإسلامي للمدينة المقدسة في تلك الفترة المبكرة، فإن الإجماع معقود بين المؤرخين على أن عمر بن الخطاب قدم إلى جابية الشام بناء على طلب من أبي عبيدة ليتسلم المدينة حسب ما اشترط أهلها، وقد تسلم المدينة فعلاً من البطريك صفرونيوس، ودخلها صلحاً، وكانت زيارته لها من أهم الأحداث التي رافقت الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وفي ذلك تجسيد للرؤية الإسلامية الإستراتيجية لمدينة القدس، وهي الرؤية التي جعلت من القدس أحد المحاور الرئيسة لدعوة الإسلام.

وفي سياق التهوين من منزلة القدس ذهب بعض المستشرقين ومنهم إيمانويل سيفان إلى أن احتلال المدينة، وسقوطها في يد الفرنجة عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩ م لم يكن له صدى في أرجاء العالم العربي والإسلامي، وتتكرر الإشارة كذلك إلى تفريط ملوك المسلمين بها، والتنازل عنها طواعية لملوك الصليبيين، مثلما فعل الملك الكامل حين سلمها وبيت لحم بموجب معاهدة يافا إلى الملك الصليبي فردريك الثاني في ١٨ فبراير من عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩ م، دون أن يكون هناك رد فعل يتناسب مع أهميته وخطورته [٥٣].

على أن هاتين الحادثتين أثبتتا عكس ما أراده أولئك المستشرقون، فقد تعززت مكانة المدينة، وأثبتت ردود الفعل التي أعقبتها أن للقدس مكانة لا تعادلها سوى مكانة مكة والمدينة، وتتحدث المصادر القديمة التي تناولت الحدث الأول مثلا أن المسلمين حين سمعوا بسقوط القدس في يد الفرنجة، اغتمُّوا وعمَّهم الحزن، وكان لهذا الحدث أصداء واسعة تمخض عنها أدب غزير، كانت بيت المقدس فيه محور الاستثارة لمجاهدة الصليبيين وتخليصها من أرجاسهم [٥٤]، وقد وصف ابن كثير، وهو من المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة، ردود الأفعال هذه بقوله: «وفيها سنة ٤٩٢ هـ أخذت الفرنج بيت المقدس، وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان، منهم القاضي أبو سعيد الهروي، فلما سمع الناس ببغداد بهذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعيد الهروي كلاماً قرئ في الديوان، وعلى المنابر، فارتفع بكاء الناس، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد» [٥٥].

وكذلك كان للحدث الثاني، وهو تسليم المدينة للصليبيين من طرف الملك الكامل دوي هائل وصفه مجير الدين الحنبلي بقوله: «إن المسلمين حين سمعوا بأنباء تسليم المدينة غضبوا واشتد بكاؤهم، وعظم الصراخ والعويل، وأقيمت المآتم وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، وقال الوعاظ والعلماء يا خجلة ملوك المسلمين على هذه الفعلة الشنيعة، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وحقد أهل دمشق عليه وعلى من معه، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار» (٥٦)، وكذلك وصفه أبو بكر الدواداري بقوله: «ووصلت الأخبار إلى سائر بلاد الإسلام أن الملك الكامل أعطى القدس للفرنج، فقامت الدنيا على ساق واحدة وعظم ذلك على سائر المسلمين وأقاموا المآتم» (٥٧) .

ويبدو أن جمهرة المستشرقين لم يكونوا معنيين بالوقوف عند هذه الأقوال، واستخلاص ما تتضمنه من معان ودلالات، فلم يشيروا إليها من قريب أو بعيد في تعليقاتهم، ولم يثبتوها في كتاباتهم لإحساسهم بأن مضامينها وأفكارها ترسّخ المكانة التي تحتلها القدس في نفوس المسلمين، وعوضاً عن ذلك فقد ركزوا جهودهم في البحث والتنقيب عن أي خبر أو إشارة تسعفهم على اختلاق دور تاريخي لليهود في التصدي للعدوان الصليبي، وتشكيل ذلك الدور وصياغته بطريقة توحي أنهم أصحاب الأرض وأنهم تعرضوا للعدوان، ودافعوا عن البلاد مثلما فعل العرب (٥٨) .

والواقع أن اليهود في تلك الفترة لم يكونوا مؤهلين للقيام بدور المقاومة الذي تحاول الدعاية الصهيونية اختلاقه لهم، ذلك لأنهم لم يكونوا يعيشون في كيان سياسي مستقل، ولم يكونوا يملكون الجيوش

أو الوسيلة العسكرية التي تمكنهم من التصدي للعدوان الصليبي، والأهم من ذلك أن أعدادهم كانت هزيلة بالقدر الذي يجعلنا نرفض قبول مثل هذا التزييف للواقع التاريخي (٥٩)، ففي هذا الواقع إشارات دالة على أن الأقلية اليهودية التي عاشت في تلك الفترة لم يكن لأبنائها على المستوى الفردي جهد يذكر في مقاومة الصليبيين، ولم يشاركوا المسلمين عبء التصدي والمواجهة، بل إن هناك شواهد دالة على تواطؤ العديد منهم مع القوات الغازية، يقول قاسم عبده قاسم في هذا الصدد: «ومن اللافت للنظر أن حركة المقاومة التي بدأها المسلمون ضد الصليبيين لم تجتذب الأقلية اليهودية في المنطقة العربية، ولم يقوموا بدور ملحوظ في الصراع السياسي والعسكري الذي دار بين المسلمين والمستوطنين اللاتين طوال ما يقرب من مائتي عام، وهو أمر يتمشى مع حجمهم العددي ووضعيتهم الاجتماعية في البلدان العربية والمناطق الصليبية على حد سواء» (٦٠).

ويضيف قاسم في موضع آخر قائلاً: «ومن الأمور ذات الدلالة أن الحي اليهودي في مدينة القدس كان هو نقطة الضعف التي استفاد منها الصليبيون في حصارهم للمدينة، ومنه شقوا طريقهم إلى داخل المدينة المقدسة» (٦١).

ولا شك في أن احتلال الفرنجة للمدينة، وإقدامهم على تدنيس المقدسات الإسلامية وتغيير معالمها ألهب مشاعر المسلمين، وحثهم على المقاومة، وحفز أعداداً غفيرة منهم في الفترة التي أعقبت تحريرها على القدوم إلى القدس، ومجاورة الأقصى والصلاة فيه، وقد أقر المستشرق اليهودي يوسف دروري بهذه الحقيقة بقوله: «لم تحظ

القدس بمكانة عالية في نظر السلاطين والولاة فحسب، فالحملات الصليبية ألهبت مشاعر الزهاد المسلمين في الشرق بأكمله، وزادت من الرغبة في مجاورة العلي القدير، ذلك الشوق الذي كان معروفاً في الحلقات الصوفية قبل مجيء الفرنج إلى البلاد، وأعطته تلك الحملات دفعة جديدة، وواقعية خاصة، فالقدس هي إحدى المدن الثلاث التي تشد إليها الرحال، القدس بمبانيها المقدسة ومساجدها وزواياها شدت إليها الصوفية وأهل التقى والورع والعلماء الزهاد من جميع أرجاء العالم الإسلامي» (٦٢).

على أن دروري ما لبث أن عاد أدراجه إلى النقطة ذاتها التي أنطلق منها سائر المستشرقين الذين كرسوا جهودهم للتشكيك في أهمية القدس ومكانتها الدينية، ناهجاً نهجهم في سوق الأحكام القبلية، والمعدة سلفاً دونما موازنة أو تحليل أو التزام بالحد الأدنى من معايير البحث العلمي، وهو ما أوقعه في مطب التناقض، ومخالفة الحقائق الثابتة والمقررة حيال الظواهر التي جعلها محوراً لأبحاثه ودراساته، ومن الأمثلة الدالة على هذا النهج اتجاهه إلى تكريس ظاهرة الفصل بين مكانة القدس الدينية ومكانتها السياسية والثقافية في عصورها المتلاحقة، ففي حديثه عن القدس في عصر المماليك ذكر أن المدينة كانت في هذا العصر «ذات أهمية سياسية محدودة، فلم تتخذ بها القرارات المتعلقة بشئون المملكة، كما لم يخضع حكامها مباشرة إلى مركز الدولة، وإنما كانت لعاصمة إدارية أخرى، كذلك فإن حكام المدينة لم يكونوا من أصحاب الرتب العليا، ولم يكن بها سوى قوة صغيرة للمرابطة في قلعتها، كما أنها كانت من ضمن المدن والقلاع البعيدة التي تشكل خطراً على الحاكم، ولهذا كان ينفى إليها المناوئون والأمراء والأعيان والمشايخ الذي لم يروقوا في نظر السلطان» (٦٣).

واستنتج دروري من عدم قيام المماليك ببناء سور المدينة دليلاً على ضعف مكانتها الإدارية والسياسية، وأنها لم تكن موضع رعاية السلاطين في القاهرة، (٦٤) غير أنه لا يلبث أن يناقض نفسه فيقر في موضع آخر من البحث أن السبب الكامن وراء ذلك «هو الإحساس بالأمن الناجم عن عدم وجود تحد عسكري حقيقي يواجه المماليك في تلك الفترة» (٦٥) .

وتمثل الآراء التي تبناها دروري اتجاهاً عاماً لدى العديد من المستشرقين، وتعكس إلى حد بعيد وجهة نظرهم في التقليل من أهمية القدس الإسلامية من الجوانب السياسية، والثقافية والديموغرافية، والتدليل على أنها (لم تكن سوى مدينة صغيرة معزولة ومهملة، لم تشد إليها الأنظار) حسب تعبير موشيه معوز. وأنها لم تلعب في الإسلام دور مركز سياسي أو ثقافي، بل كانت مدينة جانبية لا تأثير يذكر لها– على حد قول شلومو غويتاين– مستدلاً على ذلك بأن العرب والمسلمين لم يتخذوها قط عاصمة لهم طوال فترة حكمهم لها واستحواذهم عليها (٦٦)، والواقع أن هذا المأخذ يعد دليلاً آخر على أن مكانة المدينة الروحية القدسية في قلوب المسلمين لا تقل عن تلك التي لمكة أو المدينة. هذه المدن الثلاث حرص المسلمون على الابتعاد بها عن الصراعات السياسية والارتقاء بها أيضاً عن أن تكون أمكنة لتجمع رجال الحكم وطوائف سياسية ورجال الحرب والجيوش، فهذا ترسيخ لتكريم المدينة والمحافظة عليها نقية من مظاهر الاختلاف وأوزار السياسة، وبعيدة عن حدة الصراع لتبقى قداستها على الدوام محل إجماع بين العرب والمسلمين.

أما (حوا لاتسروس) فقد ذهبت أبعد مما ذهب إليه دروري حين قررت أن القدس رغم قدسيتها في الإسلام لم يقطنها إلا أعداد قليلة نسبياً حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وأنها لم تثر انتباه رجال الدين والسياسة العرب إلا في العشرينيات من هذا القرن بعد ظهور النزاع حول حائط المبكى [٦٧] .

وأما دروري فقد نقب من جهته في المصادر اليهودية القديمة، فوجد عبارة وردت على لسان الرابي عوباديا بن برنتورا حين ورد القدس عام ١٤٨٨ م يقول فيها: «إن القدس مدينة خربة مهجورة» [٦٨] وقد استشهد بها بطريقة توحي بأنها حقيقة مسلم بصحتها، ولا تحتاج إلى تعليق أو بيان، مع علمه أن الفترة التي زار بها هذا الرابي القدس كانت المدينة خلالها تعج بالإنشاءات العمرانية الضخمة كالمساجد والمدارس والزوايا والأربطة والمباني السكنية وشبكات المياه التي أقيمت بتوصية من سلطان المماليك آنذاك (قايتباي)، والتي ما زالت حتى يومنا هذا شاهداً حياً على المجهودات العمرانية الضخمة التي نهض بها المماليك في القدس الشريف.

وجدير بالذكر أن الرحالة الألماني فيلكس فابري (*Felex Fabri*) زار المدينة قبل زيارة الحاخام عوباديا بثماني سنوات، وشاهد بأم عينه مشروع ترميم قناة المياه التي تخرج من برك سليمان، وقد وصفه بقوله: «لقد قام السلطان ببذل جهود جبارة وأموال طائلة، مستخدماً الحكمة والحيل الكثيرة من أجل إحضار المياه للقدس» ويمضي هذا الرحالة قائلاً: «إن اليهود والنصارى ليعجبون، ويتوقون إلى معرفة ماذا يدور في خلد السلطان، وما هو الدافع وراء تبذيره هذه الأموال الطائلة من أجل تزويد مدينة القدس بالمياه»، ويفسر فابر هذا

الاهتمام بما سمعه من أهل بيت المقدس حيث: «إن المسلمين يعتقدون أنه أي قايتباي ينوي نقل مقر الحكومة من القاهرة إلى القدس» (٦٩).

لعل أهم ما توحي به هذه العبارات أن القدس خلاف ما ذهب إليه بعض المستشرقين كانت محط رعاية المماليك، وموضع اهتمامهم، فقد دأب سلاطينهم وأمراؤهم مثلا على زيارتها، والمكوث فيها فترات طويلة، كما أن النائب الذي كان يدير شؤونها كان يخضع مباشرة للسلطان، وقد جرى العرف آنذاك أن يتولى السلطان بنفسه تعيين ما سمي آنذاك ناظر الحرمين الشريفين، وهو من المناصب الرفيعة التي تعطي صاحبها- إضافة إلى الإشراف على الجوانب الدينية- صلاحيات واسعة ونفوذاً كبيراً حتى على حكام المدينة، وغيرها من المدن المجاورة، فقد كان من صلاحياته مثلاً الإشراف على الأملاك الوقفية والأراضي الزراعية ومحاسبة المسؤولين والأمراء ومراجعتهم، وتعيين القضاة ومشايخ الخانقوات المنتشرة في المدينة (٧٠) .

وجدير بالتنويه ان غالبية الخانقوات والمدارس الموجودة في بيت المقدس بنيت في عهد المماليك، وفي منطقة مجاورة للحرم القدسي، ومن أشهرها المدرسة الأشرفية التي أمر ببنائها السلطان قايتباي سنة ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م، وكان المسجد الأقصى نفسه بمثابة جامعة تدرس فيها العلوم الشرعية وغيرها، ويفد إليه الأساتذة والطلبة من شتى أرجاء العالم الإسلامي، وقد قدم لنا أبو بكر بن العربي المعافري من خلال رحلته التي قام بها إلى القدس الشريف في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م صورة حية للحيوية الثقافية والعلمية التي ميزت بيت المقدس في مراحلها التاريخية

المتعاقبة، فأكد أنها كانت مدينة علم ومدارس ومناظرات وملتقى علمائها من الأقطار الإسلامية بين خراسان والأندلس، وقد أثرت في نفسه مجالس الدراسة والمناظرة بين علماء أهل السنة والجماعات الإسلامية الأخرى، أو مع أتباع الديانتين المسيحية واليهودية، وقد أخذ ابن العربي بالنشاط الثقافي المتنوع والمفعم بالحيوية حتى إنه بقي في المدينة أكثر من ثلاث سنوات (٧١) .

وكذلك وصف أبو عبد الله المقدسي النشاط العلمي الذي كان مزدهراً في المدينة في النصف الثامن من القرن الهجري، وخاصة ما تعلق منه بالعلوم التطبيقية فقال: «إن المدينة كان فيها كل حاذق وطبيب» (٧٢) وبالرغم من أن هذا النشاط قد توقف كلية إبان الحروب الصليبية، فإنه عاد إلى سيرته الأولى بعد ذلك، وقد وصف يوسف دروري وضع المدينة في عهد المماليك مثلاً فقال: «إن القدس في عصر المماليك كانت مركزاً إسلامياً متعدد القوميات، وقد عجّت بالفعاليات العلمية وحياة التقوى والحسنات» (٧٣) .

وأرى أن في ذلك إشارة إلى أن بيت المقدس لم تفقد مكانتها العلمية كما ذكر شلومو غويتاين (٧٤)، بل بقيت كما كانت دائماً مركزاً ثقافياً مهماً من المراكز المعدودة في العالم الإسلامي.

ومن المؤكد أن هذه الصفة التي لازمت القدس في مراحلها التاريخية المتعاقبة تتناقض مع ما ذهب إليه بعض المستشرقين (٧٥) من أن القدس بالرغم من قدسيتها في الإسلام لم يقطنها سوى أعداد قليلة من المسلمين، وهذا يعني –في نظرهم– أن الوجود العربي في المدينة عابر ومؤقت بعكس الاستيطان اليهودي الذي وصفه شلومو

غويتاين بأنه (ذو الصفة الدائمة) بالرغم من إقراره أن اليهود غابوا عن القدس أكثر من خمسمائة عام في فترة الحكم البيزنطي وقرابة مائة عام في فترة الحكم الصليبي [٧٦].

وإننا لن نذهب بعيداً في دحض هذه المزاعم والافتراضات الوهمية التي لا أساس لها من الصحة، والتي لا تستند إلى دليل قطعي أو مصادر تاريخية موثوقة، فقد كفانا مؤونة ذلك عدد من الباحثين العرب والفلسطينين، ولكننا سنقتبس عبارات كتبها المستشرقون اليهود أنفسهم ونلمح فيها إشارات دالة إلى الأوضاع الديموغرافية في المدينة المقدسة، ولا سيما في فترة المماليك والعثمانيين التي تمتع اليهود خلالها بقسط وافر من الحرية والأمن، يقول موشيه معوز: «لقد امتنع اليهود عن إظهار حرياتهم الدينية والجهر بها أو المطالبة بحقوقهم السياسية، وإنما واصلوا العيش في تواضع كأقلية دينية ليست لها طموحات سياسية ما عدا مصلحة الدولة الحالية والقادمة»[٧٧]، ويقول دروري: «إن اليهود كانوا أقلية مغلوبة على أمرها لا توجد لديها أية طموحات سياسية مدعومة دعماً سياسياً، ولم تشكل أي خطر، أو تهديد على الطابع الإسلامي للمدينة، وعاشت بسلام مع جيرانها» [٧٨].

وتشير التقارير التي كتبها مجموعة من المبشرين الأمريكيين الذين أقاموا في القدس في الفترة من ١٨٢٠- ١٨٤٢م وعلى رأسهم ليفي باستوز وبليني فيسك أن غالبية سكان المدينة من العرب الفلسطينيين، وأن الطائفة اليهودية لا تشكل سوى نسبة ضئيلة يعيش أبناؤها الذين لم يتجاوز عددهم الألف نسمة في جيتو منعزل في أطراف المدينة [٧٩].

وهكذا نستدل من هذه الأقوال إن المسلمين كانوا يشكلون الكثرة الغالبة بين السكان القاطنين في المدينة المقدسة في مراحلها التاريخية المختلقة، وهذه حقيقة أكدها ناصر خسرو في زيارته للمدينة عام ١٠٤٧ م حيث قال: «إنه كان في المدينة قرابة عشرين ألف رجل» (٨٠)، وقد علق عبد العزيز الدوري على هذه العبارة بقوله: «ومعروف أن الإشارة إلى الرجال يعني عادة العائلات وهذا يجعل الرقم المذكور مائة ألف من العرب المسلمين والمسيحيين» (٨١)، وفي المقابل لم يشر خسرو في كتابه إلى أي تجمع على هيئة مستوطنة أو جيتو خاص باليهود في المدينة، ولو وجد مثل ذلك ما تردد في ذكره. وكذلك الحال في عصر المماليك الذين عرفوا بتسامحهم ومعاملتهم الحسنة للأقليات ولا سيما اليهودية منها، إذ لم يتجاوز عدد اليهود في المدينة الخمسمائة حسب شهادة فيلكس فابري الرحالة الألماني الذي زار المدينة في تلك الفترة (٨٢).

وفضلاً عن ذلك، فقد كانت القدس منذ بداية الفتح الإسلامي، وحتى سقوطها الأول في يد اليهود عام ١٩٤٨ م والثاني ١٩٦٧ م مزاراً يؤمه المسلمون من بقاع الدنيا كافة للاعتكاف والمجاورة والتعليم، وكان كثير من أولئك الوافدين يؤثرون السكن والإقامة فيها، وقد تكونت لهم فيما بعد أحياء خاصة سميت باسمهم مثل حارة المغاربة وحارة السودان والأحباش وغيرها، كما اعتاد على زيارتها مشاهير العلماء والصوفية الذين كانوا يترددون عليها مع أتباعهم، إضافة إلى العديد من الرحالة الذين زاروا المدينة ووصفوا معالمها ومزاراتها (٨٣).



ومن هنا يتضح لنا أن المدينة كانت مفعمة بالنشاط والحيوية، وكانت تعج بالفعاليات العلمية والثقافية والعمرانية التي كان من ثمارها نشوء حركة عمرانية إسلامية واسعة بدأت مع الفتح الإسلامي، واستمرت بعد ذلك في النماء والتطور حتى بلغت أوجها في عهد المماليك، لتصبح المدينة بفضل ذلك معلماً حضارياً وعلمياً بارزاً، وشاهداً حياً على العمارة الإسلامية يعز له نظير في العالم أجمع بشهادة العديد من الباحثين والمعماريين العرب والغربيين. «ولعل من أبرز السمات المميزة لهذه العمارة اعتمادها بشكل رئيس على العناصر النباتية والهندسية، أو ما سمي بفن الأرابيسك الذي دخلت فيه الرقوم بخطوطها العربية المتنوعة دخولاً متناسقاً، أثبتت قدرة الفنان العربي على الخلق والإبداع بشهادة مبدعي الأمم من كل بقاع الأرض، ومن أنصع الشواهد على ذلك عمائر بيت المقدس بعامة وعمارة المسجد الأقصى بخاصة، بحيث لا تكاد تخلو عمارة من عمائر القدس من رقم عربي ديني أو توثيقي، تثبت في الإطار العام تواصل مسيرة هذه المدينة المقدسة الحضارية العربية الإسلامية منذ أقدم العصور وإلى أيامنا هذه» (٨٤).

ومع ذلك فإن هذا الجانب الحيوي والمتميز في المدينة المقدسة لم يسلم بدوره من محاولات الغمز والتشكيك بهدف نفي الصفات الإسلامية المميزة للعمارة المقدسية، يقول شلومو غويتاين: «إن فترة الحكم العربي التي امتدت من سنة ٦٣٨ – ١٠٩٩م ذات أهمية بالغة، لأن القدس لم تتحول خلالها إلى مدينة عربية، لا في ظاهرها –لأن مخطط المدينة أو الخارطة البيزنطية للمدينة، وكثيراً من المباني المسيحية بقيت كما هي– ولا من ناحية تركيبها السكاني، فإن طابعها (الكوسمو بوليني) أي سكنى أبناء شعوب شتى فيها لم يغب عنها طيلة تلك القرون» (٨٥).

ولعل أهم ما يلاحظه الباحث من هذا النص أن صاحبه لم يذكر شيئاً عما يسمى بالعمارة اليهودية العمرانية في المدينة، مما يدل على أن تلك العمارة لم يكن لها وجود في تلك الفترة أو الفترات السابقة لها، ولو كانت هناك شواهد على هذه العمارة لما تردد هذا الباحث في ذكرها، والتنويه بها لدعم فكرة التواصل التاريخي والحضاري لليهود في أرض الميعاد التي تبناها، وحاول جاهداً التدليل عليها في أبحاثه ودراساته المتعددة.

وقد تبنى يهوشواع بن آريه فكرة غويتاين، وتوسع فيها معارضاً في بداية بحثه عن العمارة في القدس الشريف الاتجاهات التي تصنف القدس من جهة العمارة في إطار المدن الإسلامية أو الشرق أوسطية، لأن مزايا هذه العمارة التي يمكن مشاهدتها في القدس القديمة ما هي إلا غطاء خارجي يلفها، أو تحيط بها قشرة سميكة بارزة للعيان تختبئ تحتها ماهية أكثر تركيباً وتعقيداً، تتراكم فيها الطبقات التي تجعل منها مدينة تاريخية متنوعة عديدة الوجوه (٨٦).

ويرى يهوشواع أن هناك أسباباً تحول دون أن تصبح القدس مدينة إسلامية نموذجية، أهمها في نظره: مركزها الفريد كمدينة مقدسة للديانات الثلاث. وقد أدى ذلك إلى تطور مزايا جغرافية دينية طغت على الطابع الإسلامي للمدينة، وأضفت عليها مكانة بارزة كمدينة دينية أكثر منها مدينة إسلامية، فبالإضافة إلى المسجد الجامع والمباني الإسلامية الأخرى، ترسخت في المدينة كنيسة القيامة والمباني المسيحية الأخرى، كذلك حائط المبكى (البراق)، والمباني اليهودية الأخرى (٨٧).

ويقلل يهوشواع من أهمية العمارة الإسلامية في بيت المقدس مدعياً أن المسلمين طوال فترة حكمهم التي امتدت لفترة تزيد عن خمسة قرون باستثناء فترة الحكم الأموي والمملوكي لم يقوموا بتطوير القدس، فلا يمكن المقارنة –حسب قوله– بين عملية البناء التي جرت في فترة الهيكل الثاني والفترتين البيزنطية والصليبية، وبين الفترات الإسلامية الأخرى (٨٨)، ويحاول يهوشواع دعم هذه الفكرة بالإشارة إلى أن هناك اختلافات جوهرية بين نمط العمارة في القدس وغيرها من المدن الإسلامية كالقاهرة وبغداد والكوفة، فقد صممت المباني في هذه المدن بحيث يكون المسجد الجامع في مركز المدينة، ثم تتلوه قصور الإمارة والمباني الحكومية فالأسواق والمباني السكنية، أما في القدس فإن النسق المعماري –حسب رأيه– يختلف إلى حد بعيد، فالمسجد الجامع يقع في طرف المدينة لا في وسطها، كما أن طرف المدينة وأسواقها يختلف عما هو شائع في المدن الإسلامية من حيث الموقع والتصميم (٨٩).

وهكذا حاول يهوشواع جاهداً أن ينفي عن العمارة المقدسية أهم صفاتها وخصائصها الإسلامية المميزة، ويعزلها بالتالي عن تراثها الإسلامي والعربي العريق، مصطنعاً في ذلك منهجاً يقوم على مبدأ الموازنة بين الشواهد العمرانية والأثرية في القدس، وغيرها من المدن الإسلامية من جهة، وبين الموجودات الأثرية والمقدسات الدينية للأديان السماوية الثلاثة في المدينة ذاتها من جهة أخرى.

ولا شك في أن طريقة العرض التي استخدمها الكاتب في إجراء هذه الموازنات توحي لأول وهلة أن صاحبها ملتزم بقواعد البحث العلمي

وأساسياته المتمثلة بالنزاهة والتجرد والموضوعية، ولكننا من خلال النظرة الفاحصة ندرك أن كل المقدمات التي ساقها كي يصل إلى غايته التي خطط لها منذ البداية، لا تستند إلى قاعدة ثابتة، أو أساس راسخ، ذلك لأن مبدأ الموازنة الذي اعتمده أساساً لمداخلاته ومناقشاته يفقد واحداً من أهم عناصره ومقوماته، وهو عنصر التوازن والتكافؤ بين طرفي الموضوع الذي جعله مجالاً لبحثه ودراسته، فبينما يتوافر لدى الباحث على مستوى الطرف الأول عشرات، بل مئات النماذج والشواهد الحية الدالة على العمارة الإسلامية، فإنه يلجأ على مستوى الطرف المقابل إلى الافتراضات والأساطير التوراتية التي لا يوجد لها أي مقابل مادي على أرض الواقع.

وعلى سبيل المثال فإن الكاتب يوازن –كما رأينا– بين عمليات البناء في فترة الهيكل الثاني، وعمليات البناء في الفترات الإسلامية المختلفة، ويرجّح تفوق الأولى على الثانية، ولكن دون أن يكون لديه دليل مادي واحد يثبت صحة دعواه، ولو بحث عن ذلك لأعياه الأمر، لأن الحفريات الأثرية التي قام بها علماء الآثار المحدثون، ومن بينهم عدد كبير من العلماء الإسرائيليين على فترات مختلفة، لم تقدم دليلاً واحداً على وجود أنماط معمارية تعود إلى فترة داود وسليمان، ولم تفلح في العثور على أية بقايا معمارية في منطقة المسجد الأقصى، مما يثبت أن هذه المنطقة لم تكن مأهولة معمارياً في العصر البيزنطي الذي سبق الفتح الإسلامي، وقد تأكد ذلك من خارطة مادبا الفسيفسائية التي قدمت صورة للقدس في القرن الثاني الميلادي؛ أي في فترة الإمبراطور هادريان، حيث لا نجد فيها أي مبان في منطقة الحرم القدسي، في حين حددت لنا تلك الحفريات آثاراً يبوسية

وعمورية وكنعانية وكلها عربية، حتى إن البحث عن بقايا الهيكل قد كشف عن آثار وقصور أموية، أثبتت بالدليل القاطع أن القدس لم تكن مركزاً دينياً مرموقاً فحسب، بل كانت بيتاً للإمارة، ومركزاً إدارياً وسياسياً جعل منها قصبة لفلسطين، وعاصمة للدولة الأموية لفترات متقطعة في تلك الفترة المبكرة من الحكم الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن ما يطلق عليه اسم الحي اليهودي* في البلدة القديمة، قد توحي تسميته أنه من بقايا الآثار المعمارية اليهودية، والصحيح أن عمارة هذا الحي وأبنيته لا تمت بصلة إلى العمارة اليهودية، بل هي في حقيقتها أبنية عربية إسلامية، كانت تخص عائلات مقدسية قديمة بصفة وقف إسلامي، ثم أصبحت بعد ذلك يهودية بالاستئجار لا غير، أما فيما يتعلق بحائط البراق الشريف وهم المعلم الوحيد الذي يعتد به اليهود، ويجعلون منه ركيزة لدعواهم بحق الاستيلاء على المدينة القديمة، فهو أثر إسلامي صرف لا خلاف عليه، وكما يتضح من السجل التاريخي للمدينة، فإن الحائط لم يكن قط موقع نزاع بين العرب واليهود في أية حقبة من حقب التاريخ، وإنما بدأ الخلاف مع بروز الصهيونية السياسية في مطلع هذا القرن، وقد حسمت اللجنة التي شكلتها عصبة الأمم أثر ثورة البراق عام ١٩٢٩ هذا الخلاف بالنص على: «أن للمسلمين ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط، وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط، لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات

البر والخير» [٩٠].

وبالرغم من وضوح هذا القرار الدولي ونزاهته، فقد أقدمت قوات الاحتلال الإسرائيلية بعد فترة وجيزة من احتلالها لمدينة القدس عام ١٩٦٧ م على هدم حي المغاربة، غير عابئة بذلك القرار أو باحتجاج منظمة اليونسكو، وقامت الجرافات الإسرائيلية بإزالة معالم الحي ومقدساته التي تعاقب على بنائها ملوك المسلمين وأمراؤهم منذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أخريات الحكم العثماني.

وقبل أن نختتم هذه الفقرة لا بد من الإشارة إلى أن محاولات الغمز والتشكيك التي قام بها المستشرقون اليهود، لم تطل العمارة الإسلامية في بيت المقدس، فحسب بل تعدتها إلى المعالم المسيحية البارزة في المدينة، وعلى سبيل المثال فقد ظهر اتجاه بارز لدى العديد من أولئك المستشرقين لإنكار قبر المسيح يسوع عليه السلام في كنيسة القيامة، وذلك بهدف توهين الروابط التي تشد المسيحيين في شتى بقاع الدنيا إلى المدينة المقدسة، والإيحاء بأن المبنى الذي أقيم على قبر السيد المسيح حسب المعتقدات المسيحية، والذي مضى على بنائه قرون عديدة لا أهمية له بل لا معنى لوجوده، وقد أجملت دائرة المعارف اليهودية هذه التصورات بقولها: «إنه طيلة عهد الهيكل الثاني، أي في القرن الخامس قبل الميلاد على سنة ٧٠ م لم يدفن أحد داخل أسوار المدينة، وبناء على ما ذكر، فإن من المستحيل أن يكون الجسد المصلوب قد دفن في هذه البقعة التي هي من صميم أورشليم وفي داخل أسوارها [٩١].

وهكذا تتضح النوايا الصهيونية حيال المقدسات الإسلامية والمسيحية في المدينة المقدسة، فإذا ما أزيل المسجد الأقصى –لا قدر الله– وهدمت كنيسة القيامة، فأي معنى يتبقى للحضارة الإنسانية؟! إنها لا شك بداية النهاية، فهل يعي الإمبرياليون الغربيون هذه الحقيقة،؟ أم أنهم في غفلتهم ساهون، وفي دعمهم للباطل سادرون.

وبعد، فإن قمة المأساة في قضية فلسطين هي مأساة القدس؛ لأنها تشكل بأبنيتها وحجارتها وأزقتها وأماكنها المقدسة وذكرياتها رموزاً تاريخية، وحضارية لا يمكن أن تنسى. إنها روح وجزء من دين وإنها حضارة وتاريخ، وهذا هو حال الفلسطينيين والعرب والمسلمين مع القدس وهذا أيضاً حال القدس التي كتب عليها أن تقاسي الآلام العظيمة الموازية لمجدها العظيم.

لقد كانت القدس مركز الدائرة في حروب صليبية استمرت قرابة قرنين من الزمان، وخلَّفت الأحقاد والدماء بين الغرب والشرق ما لا يمكن علاجه في قرون طويلة. وإن القدس اليوم التي ترزح في أيدي الصهيونية العالمية، وبمساعدة الدول الغربية قد عادت فأصبحت محور الدائرة في صراع لا يدري أحد كم سيظل قائماً وكيف سينتهي؟ وماذا سيخلف من نتائج؟ إذا لم تعد القدس إلى أصحابها الشرعيين، ويعي أصحاب الضمائر الحية في العالم والمتمسكون بالشرعية الدولية أنه لا سلام بدون القدس، ولا استقرار في المنطقة بدون القدس، ولا بد من عودة الحق إلى أصحابه [٩٢].

الهوامش:

١. رائف نجم، عروبة القدس عبر التاريخ من كتاب: القدس دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية، إعداد: جريس خوري وآخرون، (بيت لحم، مركز اللقاء، ١٩٩٦م) ص: ١٨٩.

* سُمي الشام شاماً لأنه يقع شمال الكعبة، وهناك من يقول لكثرة الشامات فيه (بمعنى الأراضي الخصبة).

٢. *H. Smith: Man and his Gods, Grossol, Universal Library, New york. 1950. p58.*

وانظر، أ. د يونس عمرو، القدس في الإسلام، من كتاب: دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية، ص: ١٧.

٣. يونس عمرو، خليل الرحمن العربية مدينة لها تاريخ، (رام الله: دار القلم، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص: ٩.

٤. *W. Gesenius, Hebrew and English Lexicon of the O. T.*

وانظر، ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨) مادة كنع.

٥. راجع تفصيل المقارنات اللغوية، وتأصيل الاسم (فلسطين) في: يونس عمرو، خليل الرحمن العربية، مدينة لها تاريخ، مرجع سابق، ص: ٧- ١٦.

٦. سفر أشعيا ٦- ٦٣.

٧. تستخدم كلمة البوس من باس يبوس في لغتنا المعاصرة بمعنى

التقبيل، وهي فارسية معرَّبة، وليست من باس بمعنى خشن في العربية. انظر، الفيروزبادي، القاموس المحيط، مادة باس.

٨. سفر القضاة، ١٩: ١٠، وانظر
The Encyclopedia of the Bible. Item (Jebusites)

٩. سفر التكوين، ١١: ٣١.

١٠. الأب لويس كوستاز، القاموس السرياني، وانظر،
W. Gesenius, A Hebrew and English Lexicou th O. T Item (شلم)

١١. رواه الإمام أحمد في المسند، ٢: ٢٤٢ رقم: ٧٠٨٦، والنسائي في السنن، ٨: ١٠٤، رقم ٤٩٨٥ وقال عنه الألباني: حسن صحيح.

١٢. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة، (سلم) .

١٣. حسن ظاظا، القدس (الإسكندرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٠) ص: ٩.

١٤. سفر التكوين، ١: ١٤.

١٥. المصدر نفسه، ١: ٣.

١٦. (أور) *W. Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of the O. T, Item*

١٧. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، (الأوار) .

١٨. عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس (القدس: مطبعة العارف، ١٣٨٠هـ/ ١٩٧١م، ص: ٢.

١٩. ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة (مادة: قدس) .

٢٠. حسن ظاظا، القدس، ص: ٨.



٢١. انظر، اسحق موسى الحسيني، أسماء بيت المقدس، من كتاب عروبة بيت المقدس (بيروت: مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٩)، ص: ٢٨.

٢٢. المقدسي، محمد بن أحمد البشاري، شمس الدين أبو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة ليدن، مطبعة بريل)، ١٩٠٦، ص: ١٦٧.

٢٣. سفر القضاة: ١١: ١٢– ١٩.

٢٤. نقلاً عن ظفر الدين خان، تاريخ فلسطين القديم (بيروت: دار النفائس، ١٩٦٨م) ص: ٩٢.

٢٥. سيِّد فرج راشد، القدس عربية إسلامية (القاهرة: دالر المريخ للنشر، ١٩٨٣م) ص: ٣٩– ٤٣.

٢٦. ظفر الدين خان، مرجع سابق، ص: ٩٤.

٢٧. المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

٢٨. المرجع نفسه، ص: ٢٣.

٢٩. سفر التثنية، ٢٣.

٣٠. نقلاً عن ظفر الله خان، مرجع سابق، ص: ٢٨.

٣١. *The Westminster Historical Atlas to the Bible, London. P. 33.*

٣٢. سفر يوشع، ١٥: ٦٣.

٣٣. سفر القضاة، ١٩: ١٠– ١٢، وكلمة جبعة في النص ربما تعني قرية (جبع) القريبة من القدس.

٣٤. سيِّد فرج راشد، مرجع سابق، ١١٧، وانظر، أحمد الشقيري، خرافات يهودية (عمان: مطبعة الدستور، ١٩٨١م) ص: ٢٢.



٣٥. أحمد الشقيري، خرافات يهودية، ص: ٢٠٩.

٣٦. صموئيل الثاني، ٢١: ٢٢: ٣١٠.

٣٧. سفر عزرا ٦: ١٢– ١٣.

٣٨. سفر عزرا: ١١– ١٣.

٣٩. المصدر نفسه، ١٤: ٦– ١٠

٤٠. انظر على سبيل المثال: محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (القاهرة: الدار القومية، د. ت) ٨: ١– ٩٠، عز الدين فودة، قضية القدس في محيط العلاقات الدولية (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية) ١٩٦٩م، ص: ٤٦– ٧٢.

٤١. انظر تفصيلاً لهذه الفكرة في: سمير جريس، القدس في المخططات الصهيونية: الاحتلال، التهويد (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١) ص: ٨.

٤٢. *Aamiry, N. A. Jerusalem, Arab Origion and Hertage. 1987, p: 50*

٤٣. شلومو دوف غويتاين، القدس في الفترة العربية (٦٣٨– ١٠٩٩) من كتاب القدس: دراسات في تاريخ المدينة، تحرير آمنون كوهين (القدس: ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٩٠)، ص: ١٢.

٤٤. المرجع نفسه، ص: ١٣.

٤٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٢٢٤– ٣١٠ هـ)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٩٧٩) ٣: ٦٠٥.

٤٦. غويتاين، ص: ١٢.

٤٧. الطبري، تاريخ الطبري، ٣: ٦٠٣– ٦٠٤



٤٨. لمزيد من التفصيلات حول فتح المقدس راجع، الطبري ٣: ٦٠٧- ٦٠٩، الأزدي فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة: مؤسسة العرب، ١٩٧٠) ص: ٢٤٦- ٢٥٩، الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام (بيروت: دار الجليل، د. ت) ١: ٢٣٠- ٢٣٩.

٤٩. الواقدي، فتوح الشام، ١: ٢٣١.

٥٠. غويتاين، ص: ١٣، كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: ٩٨.

٥١. المرجع نفسه، والصفحة نفسها. والعهد المقصود في العبارة هو العهدة العمرية التي حظر على اليهود بموجبها السكن في المدينة بناء على طلب من أهلها، وقد أورد الطبري نص العهدة كاملاً في الجزء الثالث من تاريخه الذي تجاهله غويتاين ولم يشر إليه، بالرغم من أنه اعتاد على الاستشهاد به للتدليل على مواقفه السابقة، انظر، الطبري، تاريخ الطبري ٣: ٦٠٩

٥٢. محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة (الكويت: معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٥)، ص: ٦٦- ٦٧.

٥٣. *Emanuel Sivan, The Beginnings of the Fadail Alquds Literature, p. 265*

٥٤. محمود إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٦٧.

٥٥. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر، ١٩٦٦) ١٣- ٤٢.



٥٦. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (القدس: مكتبة المحتسب، ١٩٧٧) ١: ٤٠٦– ٤٠٧.

٥٧. أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب (القاهرة: منشورات المعهد الألماني، ١٩٧٢م) ٧: ٢٩٢– ٢٩٣.

٥٨. قاسم عبده قاسم، رواية إسرائيلية للحروب الصليبية (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٣م) ص: ٤٢– ٤٣.

٥٩. المرجع نفسه، ص: ٤٢.

٦٠. المرجع نفسه، ص: ٤٥.

٦١. المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

٦٢. يوسف دروري، القدس في عصر المماليك، من كتاب: القدس: دراسات في تاريخ المدينة، مرجع سابق، ص: ١٦.

٦٣. المرجع نفسه، ص: ١٠٤– ١٠٦.

٦٤. المرجع نفسه، ص: ١٠٥.

٦٥. المرجع نفسه، ص: ١١٣.

٦٦. غويتاين، مرجع سابق، ص: ١٢. وانظر ردّ أ. د يونس عمرو على هذا الادعاء في يونس عمرو، القدس في الإسلام، من كتاب دراسات فلسطينية: إسلامية ومسيحية، مرجع سابق، ص: ٢٥.

٦٧. حوا لاتسروس يافه، ص: ٢٣.

٦٨. يوسف دروري، القدس في عصر المماليك، ص: ١١٤. وقد أورد (دروري) هذه الرواية دون أن يثير انتباهه أن مضمونها يتناقض مع عبارة الرابي عوباديا التي استشهد بها. وأغلب الظن أن تلك العبارة، وفي السياق الذي قيلت فيه لا تعني العمارة والبنيان، بل

تعني –على الأرجح– خلو القدس من التواجد اليهودي وهجرتهم منها. وهذا يتسق مع المفاهيم التوراتية، حيث جاء في الآيات ٢٦– ٣٤ من سفر الأحبار: «واجعل الأرض بلقعاً منذ حلَّ بها أعداؤكم الذين يسكنونها»، وحسب هذه المفاهيم فإن فلسطين لا تقبل غير اليهود.

٦٩. انظر تفصيلاً لجهود العرب والمسلمين في تزويد القدس بالمياه: جمال برغوث، محمد جرادات، المشهد الحضاري في أرطاس، برك سليمان وتزويد القدس بالمياه من الفترة الرومانية حتى الوقت الحاضر، (رام الله، رواق ٢٠٠٢ م، ص: ١٧)، إبراهيم أبو رميس، قناة السبيل تاريخها وأهميتها وواقعها، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات عدد ١٨، خاص بمناسبة الاحتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية، الأول من كانون الثاني ٢٠١٠، ص: ٤١.

٧٠. من أبرز من تولوا هذا المنصب الشيخ الكمال بن أبي شريف القدسي، أما الخانقوات فمفردها خانقاه، وهو منزل يقيم فيه الصوفية، ويعرف عند العامة بالتكية، انظر د. إسحاق موسى الحسيني، أ. د. حسن السلوادي، فهارس الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، ١٩٨٨م)، ص: ٤٤٢.

٧١. إحسان عباس، رحلة ابن عربي إلى المشرق، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٨م، ص: ٨١.

٧٢. المقدسي، محمد بن أحمد البيشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مرجع سابق، ص: ١٠٦.

٧٣. يوسف دروري، مرجع سابق، ص: ١١٣.



٧٤. غويتاين، مرجع سابق، ص: ١٢.

٧٥. انظر، حوا لاتسروس، ص: ٢٣، يهوشواع بن آريه، ص: ١٩٦. وفي رأيه أن القدس بقيت لفترة طويلة تزيد على خمسة قرون منذ نهاية الحروب الصليبية قليلة السكان حتى أنه من الصعب إطلاق اسم مدينة عليها آنذاك.

٧٦. غويتاين، ص: ١٢.

٧٧. موشيه معوز، ص: ٢٢٨.

٧٨. يوسف دروري، ص: ١٤٧.

٧٩. أحمد القرعي، عروبة القدس في عيون الرحَّالة (عمان: مكتبة الشروق، ٢٠٠٦) ص: ٨٠.

٨٠. ناصر خسرو، سفر نامة، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس للهجرة، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ص: ٥٦.

٨١. عبد العزيز الدوري، القدس في الفترة الإسلامية الأولى من القرن السابع إلى الحادي عشر من كتاب: القدس في التاريخ، تحرير كامل العسلي (عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م)، ص: ١٦.

٨٢. عبد العزيز الخياط، المسلمون والقدس، من كتاب يوم القدس (عمان: لجنة يوم القدس، ١٩٩٣م)، ص: ٧٢- ٧٣.

٨٣. للتعرف إلى العلماء والزهاد والمتصوفة الذين زاروا القدس وأقاموا فيها، يراجع، إحسان عباس، رحلة ابن العربي، مرجع سابق، ص: ٧٠- ٨٥. اللقيمي، مصطفى أسعد، موانح الأنس في زيارتي لوادي القدس، مخطوط منه نسخة في مكتبه مركز الأبحاث، بجامعة القدس رقم ٥٨٦٥.

٨٤. يونس عمرو، رقوم المسجد الأقصى، من كتاب: القدس دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية، ص: ١٦٤.

٨٥. شلومو غودتاين، مرجع سابق، ص: ٢٢.

٨٦. يهوشواع بن آريه، ١٩٦.

٨٧. المرجع نفسه، ص: ١٩٧.

٨٨. المرجع نفسه، ص: ١٩٦.

٨٩. الاختلافات اليسيرة بين مدينة وأخرى من المدن الإسلامية لا تنفي الصفة الإسلامية عن معالم هذه المدينة أو تلك، أما الاحتجاج بأن المسجد يقع في طرف المدينة لا في مركزها، فلا قيمة له؛ لأن ذلك عائد إلى خاصية تمتاز بها القدس، وهو وجود وادي جهنم بمحاذاة السور الشرقي، مما حال دون تواصل البنيان من الجهة الشرقية، لأن المسلمين أحجموا قروناً طويلة عن إقامة أي بنيان فيه لاعتقادهم أنه من أودية النار.

* الحي اليهودي: شيده السلطان صلاح الدين الأيوبي بالاضافة إلى تشيده حي المغاربة.

٩٠. راجع تفاصيل هذا القرار في تقرير اللجنة الدولية المقدم إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٠م، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨م) ص: ١٠٥– ١٠٦.

٩١. صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام (بيروت: دار الجبل، ١٩٨٣م)، ص: ١٤٥.

٩٢. حسن السلوادي، القدس الهوية والانتماء التاريخي، (رام الله: دار الشيماء، ٢٠٠٩).

المصادر والمراجع:

أولاً- الكتب العربية:

١. إبراهيم، محمود، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، (الكويت: معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٥م).

٢. ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر، ١٩٦٦م).

٣. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م).

٤. الأزدي، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، (القاهرة: مؤسسة العرب، ١٩٧٠م).

٥. برغوث، جمال، جرادات محمد، المشهد الحضاري في أرطاس، برك سليمان وتزويد القدس بالمياه من الفترة الرومانية حتى الوقت الحاضر، (رام الله: رواق، ٢٠٠٢م).

٦. بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م).

٧. جريس، سمير، القدس في المخطوطات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية،١٩٨١م).

٨. الحسيني، إسحاق موسى، أسماء بيت المقدس من كتاب: عروبة بيت المقدس، (بيروت: مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٩م).

٩. الحنبلي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (القدس: مكتبة المحتسب، ١٩٧٧م).
١٠. خان، ظفر الدين، تاريخ فلسطين القديم، (بيروت: دار النفائس، ١٩٦٨م).
١١. خسرو، ناصر، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م).
١٢. الخياط، عبد العزيز، المسلمون والقدس، من كتاب يوم القدس، (عمّان: لجنة يوم القدس، ١٩٩٣م).
١٣. دروزة، محمد عزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، (القاهرة: الدار القومية، د.ت).
١٤. الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧: الدرّ المطلوب في أخبار بني أيوب، (القاهرة: منشورات المعهد الألماني ١٩٨٢م).
١٥. راشد، سَيِّد فرج، القدس عربية إسلامية، (القاهرة: دار المريخ للنشر، ١٩٨٣م).
١٦. الدوري، عبد العزيز، القدس في الفترة الإسلامية الأولى من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر من كتاب: القدس في التاريخ، تحرير كامل العسلي، (عمّان: الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م).
١٧. السلوادي، حسن، وآخرون فهارس الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، ١٩٨٨م).
١٨. السلوادي، حسن، القدس: الهوية والانتماء التاريخي، (رام الله: دار الشيماء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م).



١٩. الشقيري، أحمد، خرافات يهودية، (عمّان: مطبعة الدستور، ١٩٨١م).

٢٠. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت ٢٢٤هـ-٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: (القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٩٧٩م).

٢١. طعيمة، صابر، التاريخ اليهودي العام، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٣م).

٢٢. ظاظا، حسن، القدس، (الإسكندرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٠م).

٢٣. العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، (القدس: مطبعة المعارف، ١٣٨٠هـ/١٩٧١م).

٢٤. عمرو، يونس، خليل الرحمن العربية مدينة لها تاريخ، (رام الله: دار القلم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٢٥. غويتاين، شلومو دوف، القدس في الفترة العربية، (٦٣٨هـ-١٠٩٩م)، من كتاب القدس: دراسات في تاريخ المدينة، تحرير آمنون كوهين، (القدس: ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٩٠م).

٢٦. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (ت: ٨١٧هـ)، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م).

٢٧. فودة، عز الدين، قضية القدس في محيط العلاقات الدولية، (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٦٩م).

٢٨. قاسم، عبده قاسم، رواية إسرائيلية للحروب الصليبية، (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٣م).

٢٩. القرعي: أحمد، عروبة القدس في عيون الرحالة، (عمّان: مكتبة الشروق، ٢٠٠٦م).
٣٠. المقدسي، محمد بن أحمد البشاري، شمس الدين أبو عبدالله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (طبعة ليدن، ١٩٠٦م).
٣١. نجم، رائف، عروبة القدس عبر التاريخ، من كتاب القدس دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية، إعداد جريس خوري وآخرون، (بيت لحم: مركز اللقاء، ١٩٦٦م).
٣٢. الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، (بيروت: دار الجليل، د.ت).

ثانياً- المخطوطات:

١. اللقيمي، مصطفى أسعد، موانح الأنس في زيارتي لوادي القدس، مخطوط منه نسخة في مكتبة مركز الأبحاث الإسلامية، مؤسسة دار الطفل العربي، القدس، رقم ٥٨٦٥.

ثالثاً- الدوريات:

١. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات العدد (١٨)، الخاص بالقدس عاصمة الثقافة العربية، كانون الثاني، ٢٠١٠م.
٢. مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٨م.



عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

الشؤون الأكاديمية
جامعة القدس المفتوحة

فلسطين / رام الله - الماصيون

ص.ب. 1804
هاتف: 02-2984491 \ 02-2952508
فاكس: 02-2984492
بريد الكتروني: sprgs@qou.edu

2012م